الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الدينية
شعبة البحوث والدراسات

الحكمة من البلاء والموقف منه

مركز الرصد العقائدي
alrasd.net
الامانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

الشيخ مقداد الربيعي

الحكمة من البلاء والموقف منه

الشيخ مقداد الربيعي

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: الحكمة من البلاء والموقف منه.

المؤلف: الشيخ مقداد الربيعي.

عدد النسخ: ١٠٠٠

المطبعة: دار الوارث للطباعة والنشر.

سنة الطبع: ٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ.

الإخراج الفني والطباعي: الشيخ باسم العلي / الشيخ علي جبار.

من إصدارات شعبة البحوث والدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زالت المصائب والمحن التي تنزل بساحة العبد تثير التساؤلات والشبه حول عدل الله تبارك وتعالى؛ لأنّ البعض يتوقع أنّه إذا دخل في عالم القرب من الله تعالى، كأنّه دخل في عالم القرب من السلاطين، والذي يقترب من السلطان تناله منه المزايا والامتيازات، منزّهاً عن المحن والبليّات.

بينما يجد الأمر - في دار الدنيا - خلاف ذلك؛ فإنّه كلّما ازداد قرباً زادت محنته، واشتدت مصيبته، وثجّه الله بالبلاء ثجّاً، وأمام هذا المأزق افترق الناس طائفتين، فمنهم من حكاه القرآن بقوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَن﴾ فاتهم الله تعالى بالظلم - والعياذ بالله -، ومنهم الذين: ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1].

فحاولنا في هذا المختصر تلمّس أسباب البلايا والمصائب والموقف الشرعي المطلوب.

وبيّنا - أيضاً - أنّ الأمر الموافق للحكمة أنْ يتعاهد الحق سبحانه وتعالى عبيده بالبلاء؛ فيذيقهم الألم تارة واللذة أخرى؛ لأنّ حالهم لا يصلحه إلاّ ذلك، فحال العبد مع ربه كحال الشجرة مع الزارع، تراه يتعهدها بالسقي والرعاية، يعطشها وقتاً ويسقيها في آخر، ولا يترك الماء عليها دائماً، حتى إذا أعطت ثمرتها أقبل يعالجها بقطع أغصانها الضعيفة المفسدة لقوتها؛ فهو يجرّعها

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٦.

القطع بالحديد صلاحاً لها، وإبقاءً عليها؛ فلو أنّها ذات عقل -كعقول أكثر النّاس- لتصورت أنّ في ذلك إفساداً لها وإضراراً بها بينما هو عين مصلحتها.

كذلك الله تبارك وتعالى إذا أنزل بعبده ما يكره كان خيراً له ونظراً وإحساناً ولطفاً منه إليه؛ فهو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، كما هو معلوم ضرورة.

ولو مُكن الناس من الاختيار لأنفسهم، لعجزوا عن القيام بمصالحهم، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته، وعدله وإحسانه، ورحمته وفضله، أحبّوا ذلك لعلمهم بالمصلحة، أم كرهوه لجهلهم بها، و: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

بهذا انقسم النّاس إلى فريقين؛ فالصابرون سكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم، وأمّا الجاهلون فنازعوا بجهلهم حكمة الله وعلمه، وجحدوا بعجلتهم تدبيره ولطفه، بل اتهموه بالظلم، فضيعوا ما ضيّعوا ليخسروا الدنيا والآخرة؛ إنّه هو الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٢).

---

(١) سورة سبأ: ٣٦.

(٢) سورة الحج: ١١.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۞ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ۞ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(١).

ولا يخفى على أحد امتناع صدور فعل من الحكيم بلا غاية، فلابد أن يكون لله تبارك وتعالى – وهو سيد الحكماء – غاية من وراء خلقه للإنسان، فهو لم يخلق ما خلقه عبثاً، ولم يوجده هباء، بل للرجوع إليه كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(٣). فالغاية إذن هي الرجوع إليه تعالى.

ومن الضروري – حينئذٍ – أن تتعلق العناية الربانية بإيصال الإنسان – كسائر ما خلق – إلى غايته، وذلك بواسطة ما خصّهُ به من الدعوة والإرشاد، ثمّ بالامتحان والابتلاء.

فالابتلاء والامتحان هو الطريق الناجع والسبيل الموصل للغاية بحكم قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الزمر: ١٥.

(٢) سورة المؤمنون: ١١٥.

(٣) سورة النجم: ٤٢.

(٤) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٦.

فهؤلاء استشعروا الحاجة والفقر، واعترفوا برجوع الأمر كلّه لله، وأنّهم ليس لهم ولا لغيرهم من الأمر شيئاً، وهذا هو معنى العودة إليه، وهو منتهى التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1] أي ليمتحنهم ويميز بينهم على فريقين، أهل السعادة وأهل الشقاوة، فيأتي سبحانه بالجيل بعد الجيل، والفرد بعد الفرد، فيزيّن لهم ما على وجه الأرض من أمتعة الدنيا الدنيّة التي هي: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]، ثمّ يخلّيهم واختيارهم ليختبرهم بذلك.

هذا مع أنّ كلاً من الفريقين، مستطيع أن يكون من أهل السعادة والنعيم، على ما قضى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ۞ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً﴾[3]. وهذا معلوم ضرورة من مذهبنا المرحوم، ناهيك عن النص مقطوع الصدور عن أهل العصمة.

والدافع لتدوين هذه السطور المتواضعة، هو أنّ أكثر الناس يجهلون معاني: الابتلاء، والبلاء، والفتنة، والتمحيص وما جرى مجراها، كما يجهلون الغاية الإلهيّة المترتبة على ذلك؛ إذ الله تعالى - فيما سنرى- يريد أن يرحم عباده في دار النعيم، وينجيهم من نار الجحيم، ولا يتحقق هذا إلاّ بالبلاء والابتلاء..

---

(١) سورة الكهف: ٨.

(٢) سورة الكهف: ٨.

(٣) سورة الفرقان: ٦٩-٧٠.

ونظراً لما لهذا الموضوع من تأثير في سلوك الفرد، حرّرناه في سطور، وقد كانت في الأصل مجموعة محاضرات ألقاها القاصر في الإذاعة..؛ حرّرتها في قرطاس ودوّنتها، وحقّقتها في كتاب ونقّحتها؛ امتثالاً لرغبة بعض العلماء الصالحين؛ ليعمّ نفعها المسلمين، جزاه الله خير جزاء المحسنين؛ راجياً من المولى عز اسمه أن يتقبلها منّا بقبول حسن، وأن يعاملنا بفضله ومنّه وكرمه.

وقد جاء في ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: البلاء والابتلاء، لغة واصطلاحاً.

الفصل الثاني: البلاء، أسبابه وغاياته.

الفصل الثالث: أهمّ مسائل البلاء.

الشيخ مقداد الربيعي

العتبة الحسينية، كربلاء المقدسة

الفصل الأول

البلاء والابتلاء

لغةً واصطلاحاً

هذا الفصل سيتعرض لهذه المفاهيم الثلاثة، وضعاً واستعمالاً، كالتالي:

المفهوم الأول: الابتلاء.

المفهوم الثاني: البلاء.

المفهوم الثالث: الفتنة.

عدا هذا فإنّ هذا الفصل، سينهض ببيان العلاقة بين هذه المفاهيم؛ فالملاحظ أنّ الأكثر، ذاهلٌ عن العلاقة بينها، فتعيّن البيان.

وسيبيّن أيضاً أمور أخرى لازمة، كالآتي:

المفهوم الأوّل
الابتلاء

الابتلاء في الأصل: التكليف. ابتلاه الله تعالى أي كلّفه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(١). أيّ كلّفه سبحانه وتعالى بأمور أمتثلها أبونا إبراهيم على أتمّ وجه.

وليس معنى الابتلاء: الاختبار كما تُوهّم؛ إذ ليسا هما بمترادفين في الأصل؛ لكن لما كان التكليف يستلزم معنى الاختبار أو يؤدّي إليه، كما في قضية أبينا إبراهيم أعلاه، أطلق الابتلاء وأريد به الاختبار من هذه الجهة لا غير.

قال أبو العباس ابن الهائم (٨١٥هـ) في تبيانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أي اختبره بما تعبّده من السّنن(٢). اهـ.

قلت: وهو واضح في استلزام التكليف الاختبار.

وبإيجاز: الاختبار لازم التكليف؛ أي: البلاء لازم الابتلاء.

قال أبو البقاء الحنفي (١٠٩٤هـ) في ذلك: الِابْتِلَاء فِي الأَصْل: التَّكْلِيف بِالْأَمر الشاق من الْبَلَاء. لكنه لما استلزم الاختبار بالنِّسْبَةِ إلى من يجهل العواقب، ظنّ ترادفهما(٣).

قلت: أي ظُنّ ترادف الابتلاء والاختبار.

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

(٢) التبيان في غريب القرآن: ٩١. دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٣) الكليات: ٣٤. مؤسسة الرسالة، بيروت.

قال الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ): قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الابتلاء هو الاختبار، وهو مجاز هاهنا؛ لأنّ حقيقته الأمر من الله تعالى بخصال الإيمان، فسمّي ذلك اختباراً؛ لأنّ ما يستعمل بالأمر منّا في مثل ذلك على جهة الاختبار والامتحان، فجرى تشبيها بما يستعمله أهل اللغة عليه[1].

قلت: وقد توضّح المقصود؛ إذ حقيقة الابتلاء: الأمر من الله تعالى، وليس هو غير التكليف السماوي، والاختبار لازم له.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن (ت: قصير العاملي) ١: ٤٤٥. مكتبة الإعلام الإسلامي، قم.

المفهوم الثاني
البلاء

وأمّا أصل البلاء، فهو: الاختبار.

قال الشيخ الطبرسي (٥٤٨هـ): وأصل البلاء: الامتحان والاختبار[١].

وقال الإمام الجوهري (٣٩٣هـ) في الصحاح: البَلاءُ: الاختبارُ، ويكون بالخير والشر [٢].

وقال الإمام أبو بكر، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): وأصل البلاء: الاختبار، والاختبار قد يكون بالخير والشرّ، قال الله تعالى: ﴿**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**﴾[٣].[٤]

وقال إمام اللغة الأزهري (٣٧٠هـ): قال الأصمعي: بَلاه يَبْلُوه بَلْواً، إذا جَرَّبه. وبَلاه يَبْلوه بَلْواً، إِذا ابْتَلاه الله بِبَلاء[٥].

وقال الراغب (٥٠٢هـ) في المفردات: بَلِيَ الثوب بِلًى وبَلَاءً، أي: خلق، ومنه قيل لمن سافر: أبلاه السفر. وبَلَوْتُهُ: اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له...، ولذلك قيل: بلوتُ فلاناً: إذا اختبرته، وسمّي الغم بلاءً من حيث إنّه يبلي الجسم[٦].

---

(١) مجمع البيان ١: ٢٠٤.

(٢) الصحاح (ت: أحمد عبد الغفور) ٦: ٢٢٨٤. دار العلم للملايين، بيروت.

(٣) سورة الأعراف: ١٦٨.

(٤) تفسير الجرجاني، درج الدرر (ت: طلعت الفرحان) ١: ١٥٣. دار الفكر، عمان الأردن.

(٥) تهذيب اللغة (ت: محمد عوض) ١٥: ٢٨١. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٦) المفردات (ت: صفوان الداودي): ١٤٦. دار القلم، دمشق.

قلت: وهو يوضح ما يصحح إطلاق لفظ البلاء على الخلق؛ إذ كثرة الاختبار سبب لحصوله.

البلاء مشترك لفظي

قال الشيخ الطوسي :

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[١].

أخبر تعالى بأنّ هذا الذي تعبّدَ به إبراهيم، هو البلاء المبين، أي: الاختبار الظاهر. وقيل: هو النعمة البينة الظاهرة، وتسمّى النعمة: بلاء، والنقمة أيضاً: بلاء؛ من حيث أنّها سُمّيت بسببها المؤدي إليها، كما يقال لأسباب الموت، هو الموت بعينه[٢]. اهـ.

وقال الإمام أبو حيان الأندلسي (٧٤٥هـ) في التحفة: البلاء، مشترك بين: النعمة، والاختبار، والمكروه [٣].

قلت: استعمل جماعة من أهل اللسان، وكذا غير واحد من علماء القرآن، لفظ البلاء على معانٍ ثلاثة بنحو الاشتراك اللفظي، كالآتي:

الأوّل: البلاء بمعنى الاختبار.

---

(١) سورة الصافات: ١٠٢-١٠٦.

(٢) التبيان في تفسير القرآن (ت: قصير العاملي) ٨: ٥١٩. مكتبة الإعلام الإسلامي، قم.

(٣) تحفة الأريب (ت: سمير مجذوب): ٧٣. المكتب الإسلامي.

قال سبحانه وتعالى في محكم الكتاب: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾(١) والمعنى -هيهنا- ليختبركم، لا أعلم في ذلك خلافاً بين أهل القبلة.

قلت: استعمال لفظ البلاء بمعنى الاختبار، متعارف عند أهل اللسان، مجمع عليه بين علماء الحديث والقرآن.

الثاني: البلاء بمعنى النعمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

قال الطبري (٣١٠هـ): فإنّ معناه: وكي ينعم على المؤمنين بالله ورسوله بالظفر بأعدائهم، وذلك الـ: (بلاء الحسن) رمي الله هؤلاء المشركين، ويعني بالبلاء الحسن: النعمة الحسنة الجميلة (٣).

وقال الشيخ الطوسي رضوان الله تعالى عليه (٤٦٠هـ): وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً ﴾ معناه: لينعم عليهم نعمة حسنة؛ والمعنى: ولينصرهم الله نصراً جميلاً، ويختبرهم بالتي هي أحسن، ومعنى يبليهم ههنا يسدي إليهم(٤).

قلت: استعمال لفظ البلاء بمعنى النعمة في الآية أعلاه، متفق عليه، لا أعلم في ذلك خلافاً بين أهل القبلة.

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الأنفال: ١٧.

(٣) تفسير الطبري (ت: الإمام أحمد محمد شاكر) ١٣: ٤٤٨. مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٤) التبيان في تفسير القرآن (ت: قصير العاملي) ٥: ٩٤. مكتبة الإعلام الإسلامي، قم.

الثالث: البلاء بمعنى المحنة.

وهو متداول مستعملٌ عند أهل اللسان؛ يقولون عن النقمة والعذاب، وعموم المحن: بلاء.

وقد مرّ قول الراغب: وسمّي الغم بلاءً من حيث إنّه يبلي الجسم[١].اهـ.

وقال الشيخ الطوسي: وقيل للنعمة: بلاء، وللمضرّة أيضاً مثل ذلك[٢].

قلت: ولا ريب في أنّ الغمّ من أظهر مصاديق المحنة والمضرّة.

ولا بأس في سرد بعض النصوص الصحيحة في ذلك عن أهل العصمة.

---

(١) المفردات (ت: صفوان الداودي): ١٤٦. دار القلم، دمشق.

(٢) التبيان في تفسير القرآن (أحمد العاملي) ٥: ٩٤. مكتب الاعلام الاسلامي.

النصّ على استعمال البلاء بمعنى المحنة

روى البرقي (٢٧٤هـ) في المحاسن، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا علي افتتح بالملح، واختم به؛ فإنه من افتتح بالملح وختم به، عوفي من اثنين و سبعين نوعاً من أنواع البلاء، منها: الجنون والجذام والبرص»[١].

ورواه الكليني في الكافي عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن علي بن الحكم، عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قريب منه[٢].

قال المجلسي في مرآة العقول: موثق كالصحيح[٣].

وهو فصيح في استعمال البلاء بمعنى المحنة؛ والجنون والجذام والبرص من أبرز مصاديق المحنة.

وورد في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب الخزاز، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تقول ثلاث مرات، إذا نظرت إلى المبتلى، من غير أن تسمعه: الحمد لله الذي عافاني ممّا ابتلاك به و لو شاء فعل، قال: من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبداً»[٤].

---

(١) المحاسن (ت: جلال الدين الحسيني) ٢: ٥٩٣. دار الكتب الإسلامية، طهران.

(٢) الكافي (ت: علي غفاري) ٦:٣٢٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) مرآة العقول٢٢: ١٥٤.

(٤) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٩٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قال المجلسي في مرآة العقول: حسن كالصحيح(١).

قلت: وهو ظاهر في استعمال البلاء بمعنى المحنة؛ إذ المرض من أبرز مصاديق المحنة.

وورد في الكافي الشريف أيضاً عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن محبوب، عن أبي ولاد قال: قال أبو الحسن موسى عليه السلام: «ما من بلاء ينزل على عبد مؤمن، فيلهمه الله عز وجل الدعاء، إلاّ كان كشف ذلك البلاء وشيكاً، وما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيمسك عن الدعاء، إلاّ كان ذلك البلاء طويلاً؛ فإذا نزل البلاء، فعليكم بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل»(٢).

قال المجلسي في مرآة العقول: صحيح(٣).

وقوله: «وشيكاً» أي سريعاً. وهو ظاهر في استعمال البلاء في المحنة والشدّة والمصيبة...، ما شئت فعبّر.

وروى علي بن إبراهيم القمّي، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن ابن سنان، عن عنبسة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من تخوف من بلاءٍ يصيبه، فتقدم فيه بالدعاء لم يره الله عز وجل ذلك البلاء أبداً» (٤).

قلت: رجاله ثقات.

---

(١) مرآة العقول ٨: ١٥٩.

(٢) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٤٧١٢ ك. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) مرآة العقول ١٢: ٢٢.

(٤) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٩٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

يشهد له ما ورد أيضاً في الكافي عن أحمد بن محمد الكوفي، عن علي بن الحسن الميثمي، عن العباس بن هلال الشامي، مولى لأبي الحسن موسى عليه السلام قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون »(١).

والحديث ظاهر في استعمال لفظ البلاء في المحنة، ومعناه في الحديث: العذاب أو العقوبة، أو كلاهما، على أنّ العذاب أو العقوبة، أبرز مظاهر المحنة، سيما الأوّل.

ونشير سريعاً إلى أنّ الفرق بين العذاب والعقاب، كامنٌ في أنّ غرض الأوّل الانتقام؛ قال تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾**(٢).

وأمّا الثاني فأعمّ من الانتقام، فلعلّ الغرض منه التأديب والتطهير، ومن ذلك ما رواه الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن السري بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً، عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة»(٣).

قلت: والعقوبة هيهنا ظاهرة في معنى التطهير، ولا يسعنا التفصيل، وسيوافيك البيان في الفصل الثاني.

الحاصل:

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢ : ٩٧ . دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) سورة البقرة: ٨٦.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢ : ٤٤٥ . دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

لا شبهة في استعمال لفظ البلاء في المعاني الثلاثة الآنفة:

الأوّل: الاختبار.

الثاني: النعمة.

الثالث: المحنة والمضرّة.

بنحو الاشتراك اللفظي، لكن اختلف كبار العلماء والمفسرين في الموارد والصغريات، ويلزم التنبيه على ذلك خلال هذه التبصرة، كالآتي:

تبصرة!!

اتّضح ممّا سبق أنّ البلاء مشترك لفظي في معان ثلاثة، هي: الاختبار، والنعمة، والمحنة.

ويلزم التبصرة بثلاثة أمور:

الأوّل: كثرة استعمال أهل اللسان الفصحاء البلاء بمعنى الاختبار، بل الغالب عند المتشرّعة العلماء، استعماله بهذا المعنى؛ كونه الأصل عندهم، على ما عرفت.

الثاني: كثرة استعمال لفظ البلاء – عرفاً – بمعنى المحنة والشدّة، ومصاديق ذلك كثيرة، منها: المصيبة، ومنها: المرض، ومنها: العذاب والنقمة، ومنها: العقاب، ومنها: نقصان الثمرات والأولاد، والحرب، وتسليط الظالم ونحو ذلك؛ فكلّ ذلك يدرج تحت البلاء بمعنى: المحنة.

الثالث: ندرة استعمال لفظ البلاء بمعنى النعمة، بل قد لا يستعمل، فيما قال غير واحد من العلماء إلاّ مقيّداً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾ بيانه..

لمّا كان استعمال لفظ البلاء في معنى المحنة كثيراً، وفي معنى الاختبار كثيراً أو غالباً؛ فإنّ استعماله بمعنى النعمة من دون تقييد يوجب اللبس بين هذه المعاني الثلاثة عادةً؛ فوجب التقييد لذلك؛ فيقال مثلاً عن أصحاب الحسين في كربلاء: أبلوا بلاءً حسناً، فيقيّد البلاء بالحُسْنِ لهذا الغرض.

ولا نتناسى أنّ القرينة الخارجيّة ثابتة قطعاً في حسن بلاء أصحاب الحسين عليه وعليهم السلام، وقد سقناه تبركاً، وإنّما كلامنا فيما يوجب اللبس ممّا تجرد عن القرينة.

قال الإمام الأزهري: يُقال: اللَّهُمَّ لَا تُبْلنا إلاّ بالّتي هِيَ أَحْسن. وَيُقَال: أبلاه الله يُبليه إبلاءً حَسَناً، إذا صَنع بِهِ صَنيعاً جَمِيلاً. والبَلاء، الاسْم.

وَقَالَ زُهير:

جَزَى الله بِالْإِحْسَانِ مَا فَعلا بكم　　　وأبْلاهما خَيْرَ البَلاء الَّذي يَبْلُو

أَي: صنع بهما خير الصَّنيع الَّذِي يَبْلو بِهِ عِبَادَه[1].اهـ.

ولطالما اختلف كبار العلماء في معنى البلاء نتيجة هذا اللبس؛ هاك بعض الأمثلة..

(١) تهذيب اللغة (ت: محمد عوض) ١٥: ٢٨١. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

اختلاف العلماء بسبب الاشتراك

كان كلّ غرضنا من التفصيل المتقدّم، تنبيه القارىء الكريم، أنّ من آثار الاشتراك اللفظي لمعنى البلاء، اختلاف العلماء عند فقدان القرينة القطعيّة أو ما يتاخمها..

مثال لاختلاف العلماء في كون البلاء نعمة أم محنة.

فقد اختلف العلماء في قوله تعالى - على سبيل المثال -: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**[1]. على قولين:

القول الأوّل: البلاء بمعنى النعمة، وهو قول جماعة كبيرة من المفسرين وأهل اللغة؛ وحجتهم أنّ متعلّق البلاء هو نعمة الإنجاء، وهي قرينة على أنّ المقصود من البلاء النعمة.

وممّن ذهب إلى هذا القول جازماً السيّد المرتضى رضوان الله تعالى عليه (٤٣٦هـ) في أماليه؛ قال: والبلاء ههنا: الإحسان والنعمة، ولا شك في أنّ تخليصه لهم من ضروب المكاره التي عددها الله، نعمة عليهم، وإحسان إليهم، والبلاء عند العرب قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً قال الله تعالى: **﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً**

(١) سورة الملك: ٢.

حَسَنًا﴾، ويقول النّاس في الرجل إذا أحسن القتال والثبات في الحرب: قد أبلى فلان، ولفلان بلاء [١].

وقال الشيخ الطوسي محتملاً: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فالمراد بالبلاء ههنا النعمة، وقد يكون بمعنى النقمة [٢].

القول الثاني: البلاء بمعنى المحنة والنقمة، وهو أيضاً قول جماعة من المفسرين وأهل اللغة؛ وحجتهم أنّ متعلق البلاء، هو المحنة وسوء العذاب كما جاء في الآية، وهي القرينة.

قلت: سبب اختلافهم ضياع القرينة القطعيّة..؛ فكلاهما محتمل. ومن الواضح أنْ ليس معنى البلاء هيهنا الاختبار، بداهة أنّ حقيقة الإنجاء، أو محنة بني إسرائيل، يباينان حقيقة الاختبار، فتعيّن ما قلناه، وهو الأظهر بشهادة إجماع المفسرين المركب من القولين.

---

(١) أمالي المرتضى (ت: أحمد الشنقيطي) ٤: ٢٤. مكتبة المرعشي النجفي، قم.

(٢) التبيان في تفسير القرآن (ت: قصير العاملي) ٨: ٥١٩. مكتبة الإعلام الإسلامي، قم.

مثال لاختلاف العلماء في كون البلاء اختبار أم نعمة

ومن ذلك قوله تعالى في قضيّة ذبح أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ﴾.

قال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): فيه قولان:

أحدهما: النعمة البينة، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والثاني: الاختبار العظيم؛ قاله ابن زيد، وابن قتيبة. فعلى الأول، يكون قوله هذا إشارة إلى العفو عن الذبح. وعلى الثاني، يكون إشارة إلى امتحانه بذبح ولده [1].

وقد مرّ قول الشيخ الطوسي: أخبر تعالى بأنّ هذا الذي تعبّدَ به إبراهيم، هو البلاء المبين، أي: الاختبار الظاهر. وقيل: هو النعمة البينة الظاهرة، وتسمّى النعمة: بلاء، والنقمة أيضاً: بلاء؛ من حيث أنّها سُمّيت بسببها المؤدي إليها، كما يقال لأسباب الموت، هو الموت بعينه[2]. اهـ.

قلت: الأمثلة كثيرة، ليست بعزيزة، وقد كان مقصودنا التبصرة والتذكرة لا غير.

---

(١) زاد المسير (ت: عبد الرزاق مهدي) ٣: ٥٤٥. دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) التبيان في تفسير القرآن (ت: قصير العاملي) ٨: ٥١٩. مكتبة الإعلام الإسلامي، قم.

النسبة بين البلاء والابتلاء

مرّ أنّ أصل الابتلاء هو: التكليف.

كما قد بان أنّ أصل البلاء هو: الاختبار.

وهما على هذا متباينان، لكن بما أنّ لازم التكليف هو الاختبار، صح - من هذه الجهة - إطلاق أحدهما على الآخر؛ أي إطلاق الابتلاء وإرادة الاختبار، استعمالاً لا وضعاً، فاحفظ.

وإذا ما قيل: إنّ البلاء والابتلاء مترادفان، وهو قول جملة من الأعاظم كصاحب تفسير الميزان ، فالمقصود خصوص ما أوضحناه من الجهة أعلاه، فلا تغفل.

الزبدة: الابتلاء والبلاء قد يستعملان في القرآن واللغة بمعنى واحد، وهو الاختبار والامتحان؛ تقول: ابتليته وبلوته بكذا، أي امتحنته واختبرته، إذا قدمت إليه أمراً أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده؛ كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفة والعلم والوفاء أو ما يقابلها.

قال الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) في التبيان: وقيل للنعمة: بلاء، وللمضرّة أيضاً مثل ذلك؛ لأنّ أصله ما يظهر به الأمر من الشكر أو الصبر، ومنه: يبتلي بمعنى: يختبر ويمتحن، وسميت النعمة بذلك لإظهار الشكر، والضر لإظهار الصبر الذي يجب به الأجر[1].

(١) التبيان في تفسير القرآن (أحمد العاملي) ٥: ٩٤. مكتب الاعلام الاسلامي.

وقال الراغب الأصفهاني: وإذا قيل: ابْتَلَى فلان كذا وأَبْلَاهُ فذلك يتضمن أمرين: أحدهما تعرّف حاله والوقوف على ما يُجهل من أمره، والثاني ظهور جودته ورداءته، وربما قصد به الأمران، وربما يقصد به أحدهما، فإذا قيل في الله تعالى: بلا كذا وأبلاه، فليس المراد منه إلاّ ظهور جودته ورداءته، دون التعرف لحاله، والوقوف على ما يجهل من أمره، إذ كان الله علّام الغيوب، وعلى هذا قوله عزّ وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (١).

الزبدة: لا يكون الابتلاء إلاّ بعمل وتكليف؛ وهو على ثلاثة أقسام؛ كالآتي.

---

(١) المفردات (ت: صفوان الداودي): ١٤٦. دار القلم، دمشق.

الابتلاء: تكليف، وهو على ثلاثة أقسام

الله تعالى كلّف الخلائق بهذه الأقسام، كلٌّ على حدة، أو على نحو المجموع، وهي كالآتي:

القسم الأول: العمل القلبي؛ كالنيّة وإنكار الباطل، ولا ريب في كونها تكليفاً؛ لما رواه الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن يحيى الطويل صاحب المنقري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «حسب المؤمن عزّاً إذا رأى منكراً أن يعلم الله عز وجل من قلبه إنكاره»(١).

قال المجلسي الأول في الروضة: إسناده حسن كالصحيح (٢).

قلت: وهو نصٌّ في مطلوبيّة الإنكار القلبي؛ فهو إذن تكليف.

القسم الثاني: العمل القولي؛ كعمل اللسان، ولا ريب في كونه تكليفاً أيضاً؛ لقول الصادق عليه السلام على سبيل المثال: «من قال يا رب يا الله، يا رب يا الله، حتى ينقطع نفسه، قيل له: لبيك ما حاجتك».

قلت: رواه الكليني عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن عيسى، عن معاوية، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام (٣).

قال المجلسي الثاني في المرآة: صحيح (٤).

---

(١) الكافي للكليني ٥: ٦٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) روضة المتقين ١١: ٤٧.

(٣) الكافي للكليني ٢: ٥٢٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول: ١٢: ٢٠٩.

وهو تكليف لكونه مستحباً إجماعاً، والاستحباب أحد التكاليف الخمسة فيما هو معلوم ضرورة.

الثالث: العمل الجوارحي؛ لقوله تعالى على سبيل المثال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(١).

ويلاحظ أنّ الفعل الجوارحي، هو الذي تظهر به صفات الإنسان الكامنة، وحقيقته المستورة، دون القول الذي يحتمل الصدق والكذب، فلا يكون اللسان، ناهيك عن القلب والنيّة، دليلاً كاشفاً عن حقيقة الإنسان دائماً، بخلاف الفعل الذي هو غالباً دليلاً كاشفاً عن خبث الإنسان أو طيبه؛ لذا نجد كلّ الابتلاءات التي عليها مدار الأديان، هي عمليّة جوارحيّة من قبيل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾(٢).

وقال عز وجل: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾(٤).

ناهيك عن مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي

---

(١) سورة الأنفال: ٣.

(٢) سورة المجادلة: ١٢.

(٣) سورة النمل: ٣٨-٤٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٤٩.

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١).

وبالجملة قال الله تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**(٢).

وزبدة القول: أن مدار الأديان في مقاطعها الحرجة؛ كتعيين الخليفة المعصوم في العقديات، وكالدفاع عن بيضة الدين في الفرعيات، على العمل الجوارحي بخلاف القول والنيّة؛ فقضيّة عرش بلقيس أثبتت أنّ المستحق لخلافة نبيّ الله سليمان عليه السلام هو آصف صلوات الله عليه، كما أنّه مولى الموحدين علي بن أبي طالب بعد سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله؛ لتفرّده في كونه المحامي عن الرسول والرسالة كما في أحد والأحزاب وخيبر، حيث جَبُن كلّ الصحابة وولّوا الدبر، ناهيك عن تصدّقه المثالي على ما جزمت به آيتا النجوى والولاية وغيرهما من النصوص القطعيّة، ولا تحصى مناقبه الجوارحيّة التي تفرد بها على العالمين، المثبتة لاستحقاقه خلافة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة التوبة: ١٠٥.

(٣) أنظر كتاب عليّ عليه السلام في سنّة الرسول صلى الله عليه وآله (بأسانيد اهل السنّة الجياد)، للشيخ باسم الحلّي، دار الأثر، بيروت.

المفهوم الثالث
الفتنة

وأمّا الفتنة فهي: ما يقع به اختبار حال الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[١]، وقوله تعالى:﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٢] وقوله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٣].

من هنا يتضح الفرق بين الفتنة والبلاء، فالبلاء هو: الامتحان والاختبار.

وأمّا الفتنة، فهي موضوع الاختبار، أو: الأمر الذي يقع به الاختبار؛ كالمال والولد والمرض والمنصب وغيرها.

حسبنا – لزيادة التوضيح – قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين﴾[٤] فهو نص ظاهر فيما نحن فيه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ يوضّح أنّ الاختبار لا يمكن تحققه من دون هذا الشيء الذي هو تارةً الخوف، وأخرى الجوع، وثالثاً نقص الأموال، ورابعاً الأنفس، وخامساً الثمرات وغير ذلك ممّا هو معروف، بل منصوص عليه في كتاب الله تعالى.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٨.

(٢) سورة البقرة: ١٠٢.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٤) سورة البقرة: ١٥٥.

فالفتنة هي: الشيء أو هذه الأشياء التي لا يتحقق الاختبار من دونها، وهي عدّة أشياء كلّيّة؛ أحصاها الجزائري في كتابه نور البراهين.

الفتنة على عشرة معان في الاستعمال

قال الجزائري (١١١٢هـ) في كتابه نور البراهين: والفتنة على عشرة أوجه؛ فوجه منها الضلال.

والثاني: الاختبار وهو قول الله عز وجل: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ يعني اختبرناك اختباراً، وقوله عز وجل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]، أي لا يختبرون.

والثالث: الحجة، وهو قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2].

والرابع: الشرك، وهو قوله عز وجل: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[3].

والخامس: الكفر، وهو قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[4]، يعني في الكفر.

والسادس: الإحراق بالنار، وهو قوله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ... إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[5]، يعني: أحرقوا.

---

(١) سورة العنكبوت: ٢.

(٢) سورة الأنعام: ٢٣.

(٣) سورة البقرة: ١٩١.

(٤) سورة التوبة: ٤٩.

(٥) سورة البروج: ١٠.

والسابع: العذاب، وهو قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[(١)] يعني يعذبون، وقوله عز وجل: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني عذابكم، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾[(٢)].

والثامن: القتل، وهو قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً﴾[(٣)]، يعني إنّ خفتم أن يقتلوكم، وقوله عز وجل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[(٤)]، يعني أن يقتلهم.

والتاسع: الصد، وهو قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾[(٥)]، يعني ليصدونك.

والعاشر: شدة المحنة، وهو قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[(٦)]، وقوله عز وجل: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[(٧)]، أي محنة فيفتنوا بذلك ويقولوا في

---

(١) سورة الذاريات: ١٣.

(٢) سورة المائدة: ٤١.

(٣) سورة النساء: ١٠١.

(٤) سورة يونس: ٨٣.

(٥) سورة الإسراء: ٧٣.

(٦) سورة الممتحنة: ٥.

(٧) سورة يونس: ٨٥.

أنفسهم: لم يقتلهم إلاّ دينهم الباطل وديننا الحق، فيكون ذلك داعياً لهم إلى النّار على ما هم عليه من الكفر والظلم [١].

قلت: لم يمثّل الجزائري للفتنة بمعنى الضلال، لوضوحه، ومن أمثلته: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ﴾**[٢]. فمعنى الفتنة هيهنا الضلال عند مشهور المفسرين الأعظم، بل لا أعلم في ذلك خلافاً.

والخلاصة:

جميع هذه الأمور العشرة - الكلية منها أو الجزئيّة - هي فتنة؛ كونها: الأشياء التي لا يتحقق البلاء والاختبار خارجاً من دونها، أو واحد منها؛ إذ لا انفكاك..

على أنّ بعضها متداخلة، فالصدّ والعذاب والقتل و... على سبيل المثال، داخل في شدّة المحنة، وكذا فإنّ الفتن من قبيل: الصد والإحراق بالنار و...، أمورٌ لا يتحقق الاختبار من دونها على ما مرّ توضيحه.

والمحنة أمر كلّي، وما كان، من قبيل: المرض، والموت، والفقر، والصد و...، مصاديقٌ إضافيّة للمحنة، وإن كانت - في نفسها - أمور كلّيّة.

وهيهنا كلام كثير يخرجنا البسط فيه عن الغرض، نرجئه لموضع آخر.

---

(١) نور البراهين (ت: مهدي رجائي) ٢: ٣٦٦. مؤسسة النشر الإسلامي، قم.

(٢) سورة آل عمران: ٧.

اتحاد البلاء والفتنة خارجاً

اتّضح جلياً أنّ معنى البلاء غير معنى الفتنة مفهوماً؛ فأصل البلاء هو الاختبار، وأمّا الفتنة فهي كما نصّت الآية الآنفة: الأشياء التي يحصل بها الاختبار.

أمّا خارجاً، فلا يمكن أن يتحقق البلاء والاختبار من دون فتنة؛ أي من دون المرض، أو الأولاد، أو الغنى، أو الفقر، أو نقص الثمرات، أو غير ذلك؛ فلولا هذه الأشياء لما كان هناك اختبار في الخارج إطلاقاً.

ومعناه – من هذه الجهة – عدم انفكاك أحدهما عن الآخر، وهو ما قصدناه بالاتحاد؛ وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلّ صريحاً على هذا..

قال تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾[1].

قال الإمام السنّي الواحدي (٤٦٨هـ) في كتابه الوجيز: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾[2] اختبرناك اختباراً بأشياء قبل النَّبوَّة[3].

قلت: قلت وقد مضى قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجوعِ﴾ ومجموعهما نصٌ في المطلوب.

(١) سورة طه: ٤٠.

(٢) سورة طه: ٤٠.

(٣) الوجيز للواحدي: ٦٩٥.

قال الإمام السنّي السمعاني (٤٨٩هـ) في تفسيره: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١] معناه: يبتلون في كلّ عام بالأمراض والشدائد، وقيل: بالجهاد مع الأعداء[٢].

قلت: ومن الواضح عدم انفكاك معنى البلاء والاختبار خارجاً عن المحن والشدائد؛ كالأمراض وغيرها؛ فالمحن والشدائد هما الفتنة التي لا يتحقق البلاء والاختبار من دونهما.

ولقد تقدّم – أيضاً – أنّ أصل معنى الابتلاء هو التكليف، والتكليف يتضمّن الشدّة والمشقّة؛ فهما أيضاً متحدان خارجاً وإن تغايرا مفهوماً.

قال ابن شهرآشوب (٥٨٨هـ) في متشابه القرآن: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣] ومعنى الآية: أنّ الله تعالى يختبرهم بالأموال والأولاد؛ ليتبين الساخط لرزقه، والراضي بقسمة، وإنْ كان تعالى أعلم بهم، ولكن ليظهر الأفعال التي يستحق بها الثواب والعقاب؛ لأن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث، وبعضهم يحب تثمير المال ويكره انثلام الحال[٤].

قلت: ومعنى أنّ الأولاد والأموال فتنة، أنّ الاختبار لا يحصل من دونهما خارجاً ولا يمكن تحققه عياناً.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٦.

(٢) تفسير السمعاني (ت: ياسر إبراهيم) ٢: ٣٦١. دار الوطن، الرياض.

(٣) سورة الأنفال: ٢٨.

(٤) متشابه القرآن ومحكمه: ١٧٥. جابخانة شركت سهامي، إيران.

خلاصة الفصل الأوّل

أصل الابتلاء يعني: التكليف. وهو عادةً يتضمّن المشقّة والمحنة؛ بل لا تكاد تجد تكليفاً دون مشقّة؛ لذلك فالابتلاء يرادف البلاء بمعناه الثالث؛ من جهة أنّ كلاً منهما محنة ومشقّة.

وأمّا أصل البلاء، فيعني: الاختبار.

فهما: الابتلاء والبلاء؛ أي التكليف والاختبار، متغايران مفهوماً وحقيقةً، لكن ما ينبغي التنبيه عليه أنّ الابتلاء أي: التكليف، لما كان يستلزم معنى البلاء أي الاختبار، بحيث لا تجد خارجاً تكليفاً إلاّ والاختبار لازم ذاتي له؛ كلزوم الزوجيّة الذاتي للأربعة، صحّ ترادفهما من هذه الجهة؛ فيقال: ابتلاء ويقصد به الاختبار.

فلا يخفى على أهل النظر أنّ الزوجيّة تباين الأربعة مفهوماً، أمّا خارجاً فهما متّحدان دون ريب.

وقد يطلق البلاء على المحنة؛ كالعذاب والمرض ونقص الثمرات و...، كما قد يطلق على النعمة أيضاً، فهو مشترك لفظي.

وسيعرض الفصل الثاني من هذا الكتاب إلى البلاء بمعنى المحنة.

وأما الفتنة: فهي الأشياء التي لولاها لما تحقق الاختبار في الخارج، من قبيل: الأموال، والأولاد، والسلطة، والمرض، والغنى، والفقر و...، فكلّ هذه الأشياء وما جرى مجراها فتنة؛ أي: الأشياء التي لا يكون اختبار من دونها؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالجوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ...﴾.

الفصل الثاني

البلاء

أسبابه وغاياته

نتساءل: لماذا يبتلينا الله بالتكاليف أولاً، ويبلونا بالمحن والشدائد ثانياً؟!.

أليس الله سبحانه وتعالى: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] تعالت عظمته؟!!

من المحال إذن أن يكون غرضه الأساس هو الانتقام والتشفّي من عبيده، وإلاّ لزم – والعياذ بالله – الرد على القرآن في الآية أعلاه وفي غيرها.

ونذكّر مرّة أخرى للأهميّة، أنّ البلاء مشترك لفظي بين ثلاثة معان، المعنى الأوّل هو: الاختبار، والثاني هو: المحن والشدائد والمصائب، والثالث هو: النعمة، وسيسلّط هذا الفصل الضوء على المعنيين الأولين، سيما الثاني، بشكل أكبر، فلا يختلطنّ الأمر عليك.

وقبل بيان الغاية من ابتلائه تعالى لعبيده بشتى أنواع المصائب وضروب المحن، لابد أولاً من التعرف على أسباب نزول المحن والمصائب، من هنا نقول:

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

المبحث الأوّل
أسباب البلاء

يمكن أن نحصر أسباب البلاء - بمعنى الاختبار أو المحن- بالأمور التالية:

الأول: الذنوب. كونها سبباً تكوينياً لنزول المصيبة، والغاية الإضافيّة من البلاء هيهنا، هي العذاب أو العقاب، وكلاهما رحمة، وهي الغاية القصوى، وسيأتي البيان.

الثاني: الاختبار. ليميز الله تعالى الخبيث عن الطيّب، أهل الجنة وأهل النار، والغاية من البلاء هيهنا هي التمحيص؛ لكيلا يكون للناس على الله تعالى حجّة، وهذا عين العدل والرحمة.

الثالث: التطهير والرحمة. ليأت التائب طاهراً من الذنوب يوم الحساب، وهذا عين الرحمة؛ فالغاية من البلاء هنا هي: محو سيئات من تاب وآمن وعمل صالحاً، وهذا عين الفضل والرحمة.

الرابع: رفع الدرجات، ليزيد الله تعالى الذين آمنوا واتقوا درجات، والغاية من نزول البلاء هيهنا هي إفاضة الخير الخاص؛ إذ هي متوقفة على وسائط الفيض عليهم السلام توقّف المعلول على العلّة.

ومن أشرف الأمثلة عليه أنّ الله تعالى - كما ورد في النصّ المعتبر - خيّر الحسين بين النصر والشهادة، ومع أنّ مقامه عند الله تعالى هو هو، في أعلى عليين، بل أعلى من ذلك، على الفرضين، لكن ثمّة خير لا يُفاض عن الله تعالى إلاّ بالشهادة..؛ من ذلك نيل شفاعته المتوقّف على زيارة قبره المقدّس، وغير ذلك من الخير الذي لا تحتمل هذه الوريقات البسط فيه.

الخامس: التنبيه من الغفلة والكبر وبعض الرذائل. والغاية من البلاء هيهنا، هي إرجاع الخلق إلى الله تعالى؛ لينالوا قربه ورحمته وفضله.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»[1].

وهذا الحديث خير شاهد لأسباب البلاء - بمعنى الاختبار أو المحنة - النازلة بحكمة الله تعالى على بني آدم.

---

(١) بحار الأنوار: جزء ٦٤، صفحة ٢٣٦.

تباين الأسباب والغايات

هذه الأسباب متباينة فيما هو واضح؛ لذلك فغاياتها متباينة أيضاً، وإن اتّحدت نتائجها أحياناً..، ويلزم بيان هذا بمثال؛ ليسهل فهمه، كالآتي:

فالقتل على سبيل المثال؛ ذاك الحاصل عن تسلّط الطغاة الظالمين على رقاب النّاس، هو أبرز مصاديق المحن والمصائب والشدائد كما هو معلوم..

وهو: بالنسبة للمذنبين؛ ممّن لا يحبّهم الله؛ لخبثهم، عذاب في الدنيا قبل الآخرة.

وهو بالنسبة لعامّة المكلّفين، اختبار؛ كسحرة فرعون؛ فمنهم من فاز وآمن، ومن هم من خاب وخسر.

وهو بالنسبة للمؤمنين المذنبين ممّن يحبّهم الله؛ لطيب أصلهم، تطهير.

وهو بالنسبة لسيد الشهداء الحسين عليه السلام؛ رفع درجات..؛ منها: شفاعته عليه السلام لزوّار قبره المقدّس وعامّة محبّيه.

وهو بالنسبة لمن أعرض عن ذكر الله تعالى؛ إرجاع إليه تعالى.

بلى يمكن اجتماع سببين أو ثلاثة في واقعة واحدة، لكن من حيثيتين مختلفتين أو أكثر؛ فالقتل في كربلاء كان للحسين - أرواح العالمين له الفداء - رفع درجة.

ومن حيثيّة أخرى هو: اختبار لأصحابه.

ومن حيثيّة ثالثة ترتّبت على الثانية طولياً: تطهير تكويني مطلق لكلّ أصحابه، وأجلاها ما حصل للعبد جون والحرّ أرواحنا لهما الفداء.

ومن حيثيّة رابعة: فالحسين صلوات الله عليه نعمة قدسيّة عظيمة لا يستحقّها أهل الأرض؛ لذنوبهم، فرفعه الله تعالى إليه بهذا البلاء.

ومن حيثيّة خامسة: إرجاع جلّ هذه الأمّة المتعوس إلى الله تعالى؛ فلقد كان هذا الجلّ يعبد بني أميّة دون الله تعالى، وللحسين وكربلاء، بعد الله تعالى ورسوله، الفضل في ذلك.

والنتيجة: القتل متحد في الجميع، لكن الأسباب والغايات مختلفة؛ لاختلاف الحيثيات.

الغايات على قسمين: حقيقيّة وإضافيّة.

يجب إلفات النظر إلى أنّ الغاية القصوى من مجموع الغايات الآنفة؛ هي بسط الله تعالى الرحمة على الخلق جميعاً في عالم الآخرة؛ إذ الغايات على قسمين:

القسم الأوّل: الغاية القصوى.

وهي الغاية الحقيقية المحضة، وهي غاية الغايات، وليست هي غير بسط الفضل والرحمة لعامّة الخلق دون استثناء.

القسم الثاني: الغاية الإضافيّة.

وهي وإن كانت غاية، إلاّ أنّها وسيلة بالإضافة لما فوقها ممّا يتوسّل بها إليه؛ فالعبادة في دار الدنيا غاية تامّة لله تعالى؛ وفي نفس الوقت هي وسيلة لنيل الغاية القصوى وهي الرضوان والرحمة والنعيم في الدار الآخرة؛ إذ الثانية متوقّفة على الأولى توقّف المعلول على علّته التامّة، على ما قضى الله تعالى، لذلك أضحت العبادة وسيلة من هذه الجهة، وغاية من تلك الجهة.

فغاية الله تعالى القصوى من الخلق هي الرحمة بخلقه؛ لكن لما كان الخلق في علم الله تعالى وتقديره، متفاضلين في الدرجات، تعيّن بمقتضى العدل أن يبلوهم — في دار الفناء والشقاء - أيّهم أحسن عملاً، وهي الغاية الإضافيّة؛ فهي بالنسبة لعالم الدنيا غاية تامّة لا كلام في ذلك، وفي نفس الوقت هي لعالم الآخرة وسيلة لمعرفة أيّ الخلق أحسن عملاً، أوّ أيّهم أكثر استحقاقاً لرحمة الله تعالى وفضله، وسيأتي أنّ العذاب وإن كان في نفسه نقمة، إلاّ أنّه بالنظر للغاية القصوى رحمة.

إذا اتضح هذا، فلنعرج لأسباب البلاء؛ أي: المحن والشدائد والمصائب؛ كالآتي:

السبب الأوّل: الذنوب

واضح، بل معلوم ضرورةً، أنّ الذنوب التي يجترحها الإنسان - عن عمد - سبب تكويني لنزول البلاء بمعنى: المحنة والمصيبة، بل حتى عن غفلة وسهو، كما سيأتي في السبب الخامس.

والمصيبة - لغةً - هي: الفجيعة المؤلمة بفقدان عزيزٍ، من مال أو حميم (١).

قلت: الموت، والمرض الشديد؛ كالجنون وهلاك الأعضاء، ناهيك عن تسلّط الظالمين على الرقاب والأعراض والأموال، أبرز مصاديق المصيبة وفقدان ما هو عزيز وحميم، وهذه الأمور نتيجة تكوينيّة للذنوب، ولله تعالى المشيّة في خلقه إذا تابوا؛ فإنّه سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وبيده أمّ الكتاب.

ولقد أجمل القرآن هذا الأمر في قوله تعالى: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾**(٢).

وقوله سبحانه - أيضاً -: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(٣).

إنّ سبب كلّ المصائب والنوازل، هو ما يجترحه البشر من الذنوب عن عمد، والآية الكريمة تفيد العموم؛ لوقوع النكرة في سياق النفي، وقد تأيّد هذا العموم بجملة من الآيات والأحاديث، منها قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي**

---

(١) أنظر تهذيب الأزهري (ت: محمد عوض) ١: ٢٤٦. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٥.

أَهَانَنِ * كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً * وَتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً﴾[1].

فتشير مجموع الآيات إلى أنّ سبب البلاء والمصيبة؛ كتضييق الله تعالى رزق الإنسان عليه، ونقصان الثمرات والأولاد والأمراض وتسلّط الظالمين على أهل الدين وغير ذلك، هو الذنوب، التي منها: منع حق اليتيم، وعدم إكرام الفقراء والمساكين؛ فيكون ما يصيب العبد من فقر وذل وإهانة؛ نتيجة لما ارتكبه من ذنب، وجزاء لفعله الإثم.

---

(١) سورة الفجر: ١٥-٢٠.

الزنا والعياذ بالله مثالاً

هذه بعض الآثار التكوينيّة لكبيرة الزنا الذي هو من أشدّ الذنوب العشرة المعروفة في الأديان، وأعراف الإنسان، والتي منها – أيضاً –: السرقة واللواط والكذب...؛ نسوقه من طرق الفريقين، كالآتي:

الأثر التكويني الأول: موت الفجأة.

روى الكليني بإسناده عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كثر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة»[1].

قال المجلسي الثاني في المرآة: صحيح[2].

وقال والده، المجلسي الأوّل في الروضة: صحيح[3].

ورواه أهل السنّة بلفظ مقارب، أخرجه الحاكم (٤٠٥هـ) بإسناده عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: «إذا بخس الميزان حبس القطر، وإذا كثر الزنا كثر القتل ووقع الطاعون، وإذا كثر الكذب كثر الهرج» هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

قال الذهبي في تلخيصه: صحيح على شرط البخاري ومسلم[4].

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٥: ٥٤١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٢٠: ٣٨٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) روضة المتقين (=شرح من لا يحضره الفقيه) ٩: ٤٤١.

(٤) مستدرك الحاكم ٤: ٥٤٩. رقم: ٨٥٣٦. دار الكتب العلمية، بيروت.

قلت: وهو نصٌ صريح، أنّ كبيرة الزنا تورث - تكويناً - موت الفجأة أو القتل.

الأثر الثاني: محق الرزق.

روى الكليني بإسناده عن علي بن سالم قال: قال أبو إبراهيم عليه السلام: «اتق الزنا؛ فإنّه يمحق الرزق ويبطل الدين»(١).

قال المجلسي الأوّل في الروضة: موثق كالصحيح(٢).

قلت: أبو إبراهيم، كنية إمامنا الكاظم صلوات الله عليه.

الأثر الثالث: زنا نساء الزاني؛ كما تدين تدان.

وروى الكليني بإسناده عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أما يخشى الذين ينظرون في أدبار النساء، أن يبتلوا بذلك في نسائهم»(٣).

قال المجلسي الثاني في المرآة: حسن(٤).

وروى الكليني ـ أيضاً - عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن أبي العباس الكوفي..

وعلي بن إبراهيم، عن أبيه جميعاً، عن عمرو بن عثمان، عن عبد الله الدهقان، عن درست، عن عبد الحميد، عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تزوجوا إلى آل فلان؛ فإنّهم عفّوا فعفّت نساؤهم، ولا تزوجوا إلى آل فلان؛ فإنهم

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٥: ٥٤١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) روضة المتقين (=شرح من لا يحضره الفقيه) ٩: ٤٤١.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٥: ٥٥٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٢٠: ٤٠٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

بغوا فبغت نساؤهم؛ وقال: مكتوب في التوراة: أنا الله قاتل القاتلين، ومفقر الزانين، أيّها النّاس، لا تزنوا فتزني نساؤكم، كما تدين تدان »[١].

قال المجلسي الأوّل في الروضة: قويّ [٢].

قلت: أصل الحديث حسن؛ لكثرة شواهده واستفاضته، بل شهرته.

بل قد رواه أهل السنة عن أبي هريرة، وجابر، وأمير المؤمنين علي عليه السلام.

وأخرج الحاكم في المستدرك بإسناده عن أبي رافع، عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم...».

قال الحاكم النيسابوري: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه [٣].

وقد رواه الكليني بلفظه بإسناده عن عبيد بن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «بروا آباءكم يبركم أبناؤكم، وعفّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم» [٤].

قال المجلسي الثاني في المرآة: ضعيف على المشهور [٥].

قلت: الحديث بشهادة القرائن المعتبرة ثابت صحيح؛ فيكفي أنّ الأمّة تلقته بالقبول.

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٥: ٥٤١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) روضة المتقين (=شرح من لا يحضره الفقيه) ٩: ٤٣٩.

(٣) مستدرك الحاكم ٤: ١٧٠. رقم: ٧٢٥٨. دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) الكافي (ت: علي غفاري) ٥: ٥٤١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٥) مرآة العقول ٢٠: ٤٠٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

فهذه بعض الآثار التكوينيّة والكونيّة للزنا، وهي لا محالة واقعة في الخارج، متحققة في الوجود، وتبقى لله تعالى المشيّة فيمن تاب وآمن وعمل صالحاً من الزناة.

مثال آخر: الظلم

روى الكليني بإسناده عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من ظلم مظلمة، أُخِذَ بها في نفسه، أو في ماله، أو في ولده» (١).

قال المجلسي الثاني في المرآة: حسن كالصحيح (٢).

وروى الكليني أيضاً بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما من أحد يظلم بمظلمة إلاّ أخذه الله بها في نفسه وماله، وأمّا الظلم الذي بينه و بين الله فإذا تاب غفر الله له » (٣).

قال المجلسي الثاني في المرآة: حسن (٤).

قلت: وهو نصّ في الأثر التكويني لظلم العبد لأخيه العبد، وأكبر من ذلك أنّ الله تعالى قضى ألا تكون له سبحانه مشيّة في هذا؛ أي لا بَدَاء، بل حتم، فقلد قضى سبحانه أن يؤاخذ الظالم للعباد في نفسه وماله وولده، ولا رادّ لقضائه سبحانه، فتأمل جيّداً، ففيه كلام لا يسعه المقام.

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٣٣٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ١٠: ٣٠٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٣٣٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٢٠: ٤٠٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

حديث جامع في الذنوب وآثارها التكوينيّة

روى الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه.. وعدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد جميعاً، عن ابن محبوب، عن مالك بن عطية، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طفّف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلّها، و إذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي، سلّط الله عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم »[(١)].

قال المجلسي الثاني في المرآة: صحيح [(٢)].

ومن طريق آخر بلفظ مقارب، رواه عن علي بن إبراهيم عن أبيه، وعدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد جميعاً عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن أبان، عن رجل، عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خمس إن أدركتموهن فتعوذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يعلنوها إلاّ ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان. ولم يمنعوا الزكاة إلاّ منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلّط الله

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٣٧٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ١١: ٧٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

عليهم عدوهم وأخذوا بعض ما في أيديهم. ولم يحكموا بغير ما أنزل الله عز وجل إلاّ جعل الله عز وجل بأسهم بينهم» [١].

قال المجلسي الثاني في المرآة: مرسل [٢].

وقد رواه – بمعناه – أهل السنّة..؛ منهم: الإمام ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)؛ فقد رواه في العلل موقوفاً على ابن عباس، عن أبيه الإمام أبي حاتم، عن علي بن الحسن بن شقيق، عن الحسين بن واقد، عن عبد الله بن بريدة، عن ابن عباس؛ قال: «ما نقض قوم العهد إلاّ أظهر الله عليهم عدوهم، وما جار قوم في الحكم إلاّ كان القتل بينهم، وما فشت الفاحشة في قوم إلاّ أخذهم الله بالموت، وما طفف قوم في الميزان إلاّ أخذهم الله بالسنين، وما منع قوم الزكاة إلاّ منعهم الله القطر من السماء» [٣].

قلت: رجاله كما في تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ثقات احتج بهم البخاري ومسلم. ومعنى كونه موقوفاً على ابن عباس أنّه لم يسنده إلى النبيّ صلى الله عليه وآله.

وللحديث شواهد أخرى مسندة إلى النبي صلى الله عليه وآله، لا يتسنى لهذا الموجز سردها هيهنا.

فالنصوص الآنفة الثابتة، صريحة في الارتباط التكويني بين الذنوب وبين البلاء بمعنى المحنة والمصيبة؛ إذ الذنوب سبب تكويني لولادة المصائب الكونيّة والمحن الإنسانيّة.

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٣٧٤. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ١١: ٧٤. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) العلل لابن أبي حاتم (ت: سعد الحميد وخالد الجريسي) ٦: ٥٧٧، رقم: ٢٧٧٣.مطابع الحميضي.

ولقد استطردنا قليلاً في هذه النصوص؛ لأنّ العديد من الناس يتصوّر، أنّ علاقة أعمال الإنسان بالجزاء الإلهي هي من قبيل العقود الدنيوية وما يترتب عليهما من مصالح، في حين اتضح جلياً أنّ هذه العلاقة تكوينيّة، فضلاً عن كونها تشريعيّة.

وبعبارة أخرى: فإنّ كثيراً من المصائب والمحن الحالّة بالبشر، نتيجة طبيعية وتكوينية لذنوب الإنسان الناتجة عنة فعل الحرام، بل ولأخطائه الناتجة عن تعاطي المكروه الشديد، ولا بأس بالتعرض لهذا، كالآتي:

الارتباط التكويني بين المبغوض والمصيبة

هذا البحث ممّا يلحق بما نحن فيه؛ فحتّى الخطأ الناتج عن تعاطي بعض المكروهات الشديدة التي كادت أن تكون حراماً، لا يخلو من الارتباط التكويني مع المصيبة؛ بأن يكون سبباً لحلولها.

وقد أشارت العديد من الآيات والروايات للارتباط التكويني بين ذنوب العبد وأخطائه، وبين ما يترتب عليها من مصائب؛ منها قوله تعالى: **﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرْضِ وَلَـكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾**[1].

وقوله عز من قائل: **﴿إِنَّ اللهَّ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**[2].

وقوله تعالى المتقدم: **﴿وَمَآ أَصَـبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُـواْ عَـن كَثِيرٍ﴾**[3].

فهذه الآيات الكريمات واضحة الدلالة في جريان سنن إلهيّة معينة تتوقف على ما يصدر من العبد، وغيرها كثير، والإطلاق حجّة.

---

(١) سورة الشورى: ٢٧.

(٢) سورة الرعد: ١١.

(٣) سورة الشورى: ٣٠

نصوص في ذلك

هذه بعض الأمثلة، كالآتي:

(١) كراهة ترك التحنّك لمن تعمّم

من ذلك ما رواه الكليني بإسناده عن ابن أبي عمير، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من تعمّم ولم يتحنك، فأصابه داء لا دواء له، فلا يلومن إلاّ نفسه»[١].

قال المجلسي الثاني في المرآة: إسناده حسن[٢].

وقال والده، المجلسي الأوّل في الروضة: حسن كالصحيح[٣].

قلت: وهو نصٌّ فيما نحن فيه؛ فترك التحنّك ليس حراماً إجماعاً، بل مكروه كراهة شديدة، ومع ذلك فإنّه يورث الداء الذي لا دواء له.

(٢) مكروهات توجب تسليط الشيطان

روى الصدوق في العلل بإسناده عن محمد بن أبي عمير، عن حماد، عن الحلبى، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا تشرب وأنت قائم، ولا تطف بقبر، ولا تبل في ماء نفيع؛ فإنّه من فعل ذلك، فأصابه شيء فلا يلومن إلاّ نفسه، ومن فعل شيئاً من ذلك، لم يكن يفارقه إلاّ ما شاء الله»[٤].

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٦: ٤٦٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٢٢: ٣٤٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) روضة المتقين (=شرح من لا يحضره الفقيه) ٢: ١٦٩.

(٤) علل الشرائع: ٣٨٣. منشورات المكتبة الحيدريّة، النجف.

قلت: رجاله ثقات.

ورواه – بزيادةٍ – الكليني عن العدة عن سهل، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن صفوان عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام أنه قال: «لا تشرب وأنت قائم، ولا تبل في ماء نقيع، ولا تطف بقبر، ولا تخل في بيت وحدك، ولا تمش في نعل واحد؛ فإنّ الشيطان أسرع ما يكون إلى العبد إذا كان على بعض هذه الأحوال؛ إنّه ما أصاب أحداً شيءٌ على هذه الحال، فكاد أن يفارقه إلاّ أن يشاء الله عز و جل»[1].

قال المجلسي في المرآة: ضعيف على المشهور [2].

قلت: الحديث صحيح؛ لكثرة شواهده، وبعضها – كطريق العلل أعلاه – صحيح.

والطواف بقبور أهل بيت العصمة عليهم السلام، مستثنى بالنصوص المعتبرة الآمرة بذلك، وثمّة أقوال في معنى النهي عن الطواف بالقبور لا يسعنا البسط فيها الآن، وقد نحسب – جمعاً بين النصوص – أنّ المقصود من النهي هو التغوّط بين القبور لا نفس الطواف، والمناسبة بينهما غير خافية، فمن أراد التغوّط بين القبور يتعيّن عليه الطواف بينها ليستتر؛ وإنّما ذكر المعصوم عليهم السلام لفظ الطواف تأدباً.

يدلّ على هذا الجمع ما رواه الكليني بإسناده عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «ثلاثة يتخوف منها الجنون: التغوط بين القبور، والمشي في خف واحد، والرجل ينام وحده»[1].

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٦: ٥٣٤. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٢٢: ٤٥٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قال المجلسي الأوّل في الروضة: قويّ [٢].

قلت: وهذا الجمع جيّد لو تمّت القرينة؛ فإنّك لو قارنت بين الحديثين، لرأيت أنّ قول أبي الحسن الكاظم عليه السلام: «التغوط بين القبور» في هذا الحديث، كأنّه بدل بيان لقول الصادق عليه السلام: «ولا تطف بقبر» في الحديث السابق، فتأمّل.

ويناسب ما نحن فيه هذا العنوان، كالآتي:

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٦: ٥٣٤. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) روضة المتقين (=شرح من لا يحضره الفقيه) ٧: ٦٧٢.

توضيح معنى: لبسه الجنّ

يدور على ألسنة عوام النّاس: أنّ فلاناً لبسه الجنّ؛ فهل له أصل في الشرع؟!!

وإذا كان الجواب هو: نعم، فما سبب ذلك، وما الدليل الشرعي عليه؟!!

قلنا: سبب ذلك، هو ارتكاب المبغوض الشديد، الذي ليس بحرام، والذي كاد أن يكون حراماً؛ فما بالك بالحرام، وقد مرّ الدليل على هذا بإجمال، ناهيك عن أنّ له أصلاً قرآنياً..

فقد مرّ ما رواه الصدوق في العلل بإسناد صحيح قال: حدثنا أبي رضى الله عنه قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن أبي عمير، عن حماد، عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لا تشرب وأنت قائم، ولا تطف بقبر، ولا تبل في ماء نفيع؛ فإنّه من فعل ذلك، فأصابه شيء فلا يلومن إلاّ نفسه، ومن فعل شيئاً من ذلك، لم يكن يفارقه إلاّ ما شاء الله»(١).

ورواه – بزيادةٍ – الكليني عن العدة عن سهل، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن صفوان عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام أنه قال: «لا تشرب و أنت قائم، ولا تبل في ماء نقيع، ولا تطف بقبر، ولا تخل في بيت وحدك، ولا تمش في نعل واحد؛ فإنّ الشيطان أسرع ما يكون إلى العبد إذا كان على بعض هذه الأحوال؛ إنّه ما أصاب أحداً شيءٌ على هذه الحال، فكاد أن يفارقه إلاّ أن يشاء الله عز وجل»(٢).

---

(١) علل الشرائع: ٣٨٣. منشورات المكتبة الحيدريّة، النجف.

(٢) الكافي (ت: علي غفاري) ٦: ٥٣٤. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قلت: والمجموع نصٌ ظاهر في تأثير الشيطان التكويني على الإنسان مع هذه الأحوال، وإنّما يحصل ما يسمّى بلبس الجنّ، والشيطان من جنس الجنّ، إذا اجترح الإنسان هذه الأمور، ناهيك عمّا كان من جنس المبغوض الشديد والحرام؛ سيما أمور الشعبذة والسحر.

وليس مقامنا مقام تفصيل في هذه المسألة، وإنّما أردنا الإشارة إلى أنّ الشيطان وإن قال الله سبحانه وتعالى فيه: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾**[1]، إلاّ أنّ هذا ليس مطلقاً؛ فالآية مخصّصة بالأخبار الآنفة، ناهيك عن كتاب الله تعالى.

فقد ورد: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾**[2]، وهو بضميمة الأخبار الآنفة، نصّ ظاهر في أنّ للشيطان سلطان تكويني على الغاوين، وعامّة من يتولاه.

وأصرح من ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾**[3].

فهذا هو الأصل القرآني.

---

(١) سورة الإسراء: ٦٥.

(٢) سورة الحجر: ٤٢.

(٣) سورة النحل: ٩٩-١٠٠.

نصّ في تأثير الشيطان التكويني

ومن النصوص الموضّحة لتأثير الشيطان التكويني على بني الإنسان، والموضّحة أيضاً أنّ الإنسان بارتكابه المبغوض، هو من يسلّط الشيطان على نفسه وبدنه وعقله، هذا النص الصحيح:

روى الكليني رضوان الله عليه بإسناده عن ابن محبوب، عن ابن رئاب، عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه؛ فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه، فليلزم الأرض؛ فإنّ رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك»[1].

قال المجلسي الثاني في مرآة العقول: حسن كالصحيح [2].

وهو – في الجملة – نصّ ظاهر فيما ذكرنا.

ومن ذلك أيضاً ما رواه الكليني بإسناده عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله حرّم الجنة على كلّ فحاش بذيء، قليل الحياء، لا يبالي ما قال، ولا ما قيل له؛ فإنّك إنْ فتشته، لم تجده، إلاّ لِغَيَّة أو شرك شيطان».

فقيل: يا رسول الله، وفي الناس شرك شيطان؟!!

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٣٠٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول: ١٠: ١٣٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

فقال رسول الله ﷺ: «أما تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[١]...»[٢].

قال المجلسي الثاني في مرآة العقول: معتبر عندي[٣].

قلت: قوله: «لِغَيَّةٍ» أي زنا. و: «شرك الشيطان» أي من كانت نطفته من لقمة الحرام، أو من كانت نطفته مختلطة بدم الحيض، بعد انقطاعه، قبل اغتسال المرآة، وهو المقصود في الأخبار الصحيحة: ابن حيض. أو هو المتيقّن منها، فلاحظ!!.

(١) سورة الإسراء: ٦٤.

(٢) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٣٢٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) مرآة العقول: ١٠: ٢٧٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

السبب الثاني: التطهير

روى الكليني بإسناده عن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: «ما من عبد أريد أن أدخله الجنة إلاّ ابتليته في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلاّ شدّدت عليه عند موته، حتى يأتيني ولا ذنب له، ثمّ أدخله الجنة، وما من عبد أريد أن أدخله النّار إلاّ صححت له جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا آمنت خوفه من سلطانه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلاّ وسعت عليه في رزقه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلاّ هونت عليه موته، حتى يأتيني ولا حسنة له عندي، ثم أدخله النّار»[١].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٢].

وروى الكليني بإسناده عن ابن محبوب، عن أبي الصباح الكناني، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه شيخ فقال: يا أبا عبد الله أشكو إليك ولدي وعقوقهم، وإخواني وجفاهم عند كبر سني!!.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا هذا إنّ للحق دولة، وللباطل دولة، وكلّ واحد منهما في دولة صاحبه ذليل، وإنّ أدنى ما يصيب المؤمن في دولة الباطل العقوق من ولده، والجفاء من إخوانه، وما من مؤمن يصيبه شيء من الرفاهية في دولة الباطل، إلاّ ابتلي قبل موته إمّا في بدنه، وإمّا في ولده، وإمّا في ماله، حتى يخلّصه الله ممّا اكتسب في دولة الباطل، ويوفّر له حظّه في دولة الحق، فاصبر وأبشر»[٣].

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ١١: ٣٣٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٤٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قال المجلسي في المرآة: صحيح [١].

وروى علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره قال: حدثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن منصور بن يونس، عن أبي حمزة، عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّي سمعته يقول: إني أحدثكم بحديث ينبغي لكلّ مسلم أن يعيه، ثم أقبل علينا فقال: «ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلاّ كان الله أحلم وأجود وأمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة». ثم قال: «وقد يبتلى الله عز وجل المؤمن بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله ثمّ تلا هذه الآية: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾**، وحثا بيده ثلاث مرات [٢].

قلت: إسناده معتبر بغيره. وهو نصٌّ صريح في المطلوب؛ فبعض المحن والمصائب التي يقضي بها سبحانه وتعالى على بعض عبيده، يريد منها تعالى تطهيرهم يوم القيامة، كيما لا يحاسبوا عليها هناك.

وأيضاً روى الكليني بإسناده عن مسمع بن عبد الملك، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: في قول الله عز وجل: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾** ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم، ولا خدش عود، إلاّ بذنب ولما يعفو الله أكثر، فمن عجل الله عقوبة ذنبه في الدنيا فإنّ الله أجل وأكرم وأعظم من أن يعود في عقوبته في الآخرة» [٣].

قلت: إسناده معتبر.

---

(١) مرآة العقول ١١: ٣٣٩. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) تفسير القمي (ت: طيب الجزائري) ٢: ٢٧٦. مطبعة النجف.

(٣) الكافي، للكليني ٢: ٤٤٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

وروى الإمام الترمذي من أهل السنّة قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟!.

قال النبيّ: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح [١].

وروى الترمذي أيضاً قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا يزيد بن زريع، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح [٢].

---

(١) سنن الترمذي (ت: بشار عواد) ٤: ١٧٩، رقم: ٢٣٩٨.دار الغرب الإسلامي، بيروت.
(٢) سنن الترمذي (ت: بشار عواد) ٤: ١٧٩، رقم: ٢٣٩٩.دار الغرب الإسلامي، بيروت.

السبب الثالث: الاختبار

السبب الثالث هو: الاختبار؛ فالمراد منه إظهار مكنون نفس المبتلى، فقد يظهر العبد إيماناً ويبطن كفراً، لكن في المواقف الصعبة والشديدة ليس له إلاّ الظهور على حقيقته؛ أهي طيّبة أم خبيثة، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «في تقلب الأحوال، علم جواهر الرجال، والأيام توضح لك السرائر الكامنة»[١].

قال تعالى: **﴿مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾**[٢].

وقال سبحانه وتعالى: **﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾**[٣].

ومنه قول إبليس – لعنه الله – عند تكليفه وابتلائه بالسجود لآدم: **﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾**[٤]، فلولا هذا الاختبار والابتلاء ما ظهرت حقيقته وكبره وحسده، وقد كان يتمثل بالعبادة، وهذا لا يعني إنه تعالى: كان جاهلاً بحقيقته – والعياذ بالله – **﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾**[٥]، غاية ما في الأمر أنّه تعالى ألزم نفسه بمقتضى عدله أن لا يعاقب أحداً إلاّ بعد صدور المعصية منه، ولا يكفي علمه تعالى بنيته في ارتكابها.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١ ص١٦٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال: ٣٧.

(٤) سورة الحجر: ٣٣.

(٥) سورة آل عمران: ٢٩.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا إن الله تعالى قد كشف الخلق كشفة، لا أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فيكون الثواب جزاء والعقاب بواء»(١).

وفي الحقيقة نجد هذا المبدأ يطابق حتى بعض الأنظمة والقوانين الوضعية فلا يعاقب الإنسان بمجرد نيته السرقة، بل لابد من تحققها منه في الخارج، وهنا يأتي دور البلاء والاختبار ليظهر مكنونات قلب الإنسان الخيرة والشريرة.

وقد أشار إلى هذا النوع من البلاء، قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

وأوضح منه قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: «ومعنى ذلك أنه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد؛ ليتبين الساخط لرزقه، والراضي

---

(١) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد: ٩ / ٨٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٠-١٤٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٤) سورة التوبة: ١٦.

بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من انفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب»[1].

(١) شرح النهج لآبن ابي الحديد: ج ١٨، ص ٢٤٨.

السبب الرابع: رفع الدرجات

ابتلاءات الأنبياء والأئمة عليهم السلام من هذا الباب، فلنجاحهم وصبرهم في كل ما ابتلاهم تعالى به نالوا الدرجات العلى، يظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١].

فارتفاع رتبة إبراهيم عليه السلام وجعله إماماً إنّما هو لنجاحه بجميع الابتلاءات التي مرّ بها، والكلام هو الكلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٢].

يدلّ عليه = أيضاً - ما رواه الكليني بإسناده عن ابن محبوب، عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته من بعده؛ أهو بما كسبت أيديهم، وهم أهل بيت طهارة معصومون؟!.

فقال عليه السلام: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفر في كلّ يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب؛ إنّ الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب»[٣].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٤].

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

(٢) سورة السجدة: ٢٤.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٤٥٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ١١: ٣٧٤. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

وبما تقدم يرتفع ما يمكن توهمه من أن سبب ما يصيب الأنبياء والأولياء من مصائب هو الذنب والعياذ بالله، كما توهم ذلك يزيد بن معاوية لعنه الله، فقد روى صاحب تفسير نور الثقلين أنّه لما دخل علي بن الحسين عليه السلام على يزيد ونظر إليه قال له: يا علي: **﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾**!!.

فقال عليّ بن الحسين عليه السلام: «كلاّ، ما هذه فينا نزلت إنّما نزل فينا: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾** فنحن لا نأسى على ما فاتنا من أمر الدنيا ولا نفرح بما أوتينا»[١].

فأشار الإمام إلى أنّ ما يصيبهم من نوازل لم يكن بسبب ذنب اقترفوه كما هو مؤدى الآية الأولى، وإنّما هو لطفٌ بهم ونعمة؛ ليرفع درجاتهم.

وقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**[٢]. واضح فيما نحن فيه.

ومن هذا الباب ما رواه الكليني بإسناده عن فضيل بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ في الجنة منزلة لا يبلغها عبدٌ، إلاّ بالابتلاء في جسده»[٣].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٤].

---

(١) تفسير نور الثقلين: الشيخ عبد علي بن جمعة الحويزي (قدس سره): ج٤ ص٥٨٠.

(٢) سورة البقرة: ١٥٦.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٩: ٣٣٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

ومنه أيضاً ما رواه الكليني بإسناده عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّه ليكون للعبد منزلة عند الله، فما ينالها إلاّ بإحدى خصلتين: إمّا بذهاب ماله، أو ببليّة في جسده»[١].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٢].

قلت: تقدّم أنّ المصيبة هي: الفجيعة المؤلمة بفقدان عزيزٍ، من مال أو حميم[٣].

وهو يتناول ما نحن فيه - من بلايا الجسد - قطعاً؛ للأولى.

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٩: ٣٤٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) أنظر تهذيب الأزهري (ت: محمد عوض) ١: ٢٤٦. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السبب الخامس: الغفلة والإعراض عن الله تعالى

الله تعالى يحبّ أن يتصل به عباده؛ لأنّه يحبّهم، وعلّة ذلك - تكويناً - عدم نزول رحمته الخاصّة على من ليس له قرب منه سبحانه، وهذا بديهي عند أهل البرهان من أهل المعقول، وهو الحقّ؛ فمن لا يبالي بقدس الرحمان، البعيد عن الله تعالى بالعصيان، لا يكون قريباً منه تعالى، فلا تناله زلفى ورحمة في الدارين، وإلاّ لزم المحال؛ فتعيّن أن يبتلوا لينالوا زلفى الله تعالى.

يدلّ عليه صريحاً في المنقول مجموع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٢].

قلت: حال غالب الخلق هو هذا؛ فإنّهم يعرضوا عن الله من دون بلاء ومحنة؛ كضرّ البحر في الآية الشريفة.

روى الكليني في هذا عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن سنان وعلي بن النعمان، عن عمار بن مروان، عن زيد الشحام، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها؛ فإنّ عظيم الأجر لمن عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلاّ ابتلاهم»[٣].

(١) سورة الإسراء: ٦٧.

(٢) سورة طه: ١٢٣-١٢٤.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ١٠٩. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قال المجلسي في المرآة: صحيح[١].

قلت: ومعنى: ﴿أَحَبَّ اللهُ قَومًا ابتَلاَهُم﴾ ما قلناه من أنّهم من دون محنة البلاء وشدّة الابتلاء، يعرضوا عن الله تعالى، فلا ينالوا القرب والزلفى في الدارين نتيجة لذلك، وهذا لا يحبّه الله تعالى ولا يبتغيه؛ فتعيّن البلاء والابتلاء؛ ليرحمهم؛ فأمّا البلاء فهو المحنة؛ كضرّ البحر في الآية الآنفة، وأمّا الابتلاء فهو التكليف، وهو مطلوبيّة الدعاء وذكر الله تعالى مطلقاً؛ سيما مواطن الضرّ.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ بعض البلاء النازل، ما يكون تنبيها من الغفلة وكلّ ما يوجب البعد عن الله والإعراض عنه تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[٢]، فجعل الغاية هي الرجوع إلى الله تبارك وتعالى بالتضرّع اليه؛ فالله تبارك وتعالى يريد أن يتصل به عباده دون غفلة، وأن يتوجّهوا اليه وحده دون نسيان.

روى الكليني بإسناده عن ذريح المحاربي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: «إنّي لأكره للرجل أن يُعافى في الدنيا، فلا يصيبه شيء من المصائب»[٣].

قال المجلسي في المرآة: إسناده صحيح[٤].

---

(١) مرآة العقول ٨: ١٩٨. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) سورة الأعراف: ٩٤.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٩: ٣٣٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قلت: وعلّة الكراهة مطويّه في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ والمقصود عدم الانقطاع عنه سبحانه؛ إذ ترك التضرّع له سبحانه يعني انقطاع نزول الرحمة منه سبحانه، وهذا هو الخسران المبين في الدارين.

فمن ترك الله، تركه الله تعالى، يدلّ عليه ما رواه الكليني بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله و أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله وبدنه نصيب»»[١].

قال المجلسي في المرآة: موثّق كالصحيح[٢]. ومعنى: «لا حاجة لله» أي لا يتفضّل عليه بنعمة القرب والاستخلاص، وبالتالي لا يرحمه بنعيم، ولا يمنّ عليه برضوان.

وبعبارة أخرى: فالبلاء – هيهنا – لتحصيل انكسار النفس الأمّارة بالسوء المانعة من الاتصال بالله، والمانعة بالتالي من نزول رحمته تعالى على عبده، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام – في ابتلاء الملائكة بسجدة آدم –: ولو أراد اللهّ أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه... لفعل، ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن اللهّ سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختيار لهم ونفياً للاستكبار عنهم[٣].

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٩: ٣٣٨. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) بحار الأنوار: ج١٦ ص٤٦٥.

وعنه عليه السلام: «ولكن اللهّ يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله وأسباباً ذللاً لعفوه»(١).

إشكال وجواب

وقد يقول قائل: الغفلة والتكبر من الذنوب، فيدخل السبب الخامس في الأول، وعليه فلا يكون هذا القسم مستقلاً برأسه؟!.

والجواب: لو سلّمنا هذا الإشكال؛ فإنّ الغفلة والتكبر لذاتهما بما هما من الصفات النفسانية من دون ظهور آثارهما، ليسا من المعصية، نعم إذا صدر فعل من العبد ناتجاً منهما كتركه للصلاة الناتج من الغفلة أو تعاليه على الخلق بقول أو فعل، فهو من الذنوب، يؤيد ما تقدم، إن إبليس رغم اتصافه بالكبر، لم يستحق العقوبة حتى صدر منه الفعل وهو رفضه السجود لآدم عليه السلام.

(١) بحار الأنوار: ج١٦ ص٤٦٥.

المبحث الثاني
الرحمة: الغاية القصوى من البلاء

ذكرنا أسباب نزول البلاء، بمعنى المحنة والاختبار، وغاية كلّ سبب، في مطاوي البحث الأول إجمالاً، بيد أننا لم نذكر الأصل القرآني لذلك، ولم نشر للغاية الإلهيّة القصوى منه، فكان هذا المبحث..

فهو كالتأصيل لما تقدّم، ناهيك عن كونه كالتأسيس لبيانه وتبيانه؛ إذ غاية الله القصوى تعالى هي حبّه لقرب عباده منه، وغرضه الأسمى سبحانه الرحمة بهم، واستنقاذهم من خسيس الوجود إلى أشرفه وأعلاه، حيث النعيم الأبدي، والرضوان السرمدي..؛ هذه هي الغاية القصوى.

الأصل الأوّل: الرحمة والخير

فبعد أن وقفنا تفصيلاً على أسباب البلايا والمصائب لنا أن نتسائل منهجياً عن غاية الله الأساس منها، وغرضه الأسمى سبحانه..؟!!

والجواب: إنّ الأصل هو أنّ الله تبارك وتعالى خلق الخلق؛ ليرحمهم ويعمّهم بالخير، لا ليعذبهم وينتقم منهم؛ يدل عليه قوله تعالى: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾**(1).

أي للرحمة خلقهم؛ وإنّما يعاقبهم على ذنوبهم؛ ليطهّرهم ويرحمهم ويغدق عليهم بالخير.

إشكال وجواب!!

أين الرحمة في انتقام الله تعالى من قوم لوط على سبيل المثال؟! فلقد يقال: إنّ هذا نقمة، وهو يناقض معنى الرحمة حقيقةً ومفهوماً وواقعاً!!

قلنا: اتّضح في السبب الأوّل أنّ الله تعالى يؤاخذ كلّ مذنب مؤاخذة تكوينيّة؛ بيد أنّ المذنبين على قسمين، كالآتي:

القسم الأوّل: وهؤلاء هم أكثر البشر؛ فهؤلاء وإن فسدوا وفسقوا، لكنهم لم يصلوا مرحلة الطغيان أبدياً، ولم يعدموا نور الفطرة نهائياً، ولا شعاع الحقيقة كلياً؛ فتكون مؤاخذة الله تعالى التكوينيّة بالمحن والشدائد، رحمة لهم وتطهيراً، على حسب درجاتهم وتكوينهم.

---

(1) سورة هود: ١١٨-١١٩.

القسم الثاني: المجرمون الطغاة، وهؤلاء قليل جدّاً؛ كهمل النعم، وفي لسان الروايات الثابتة هم من محض الطغيان محضاً؛ كقوم لوط وصالح، ولا ريب في أنّهم قليل جدّاً قياساً ببقية ما خلق الله سبحانه وتعالى.

إذا اتّضح هذا فالانتقام من هؤلاء هو أيضاً خير ورحمة؛ فالله تعالى يحب بسط الرحمة لعامّة ما خلق من بقيّة خلقه؛ إذ قد كتب الله تعالى على نفسه الرحمة؛ لكن قام البرهان القطعي ناهيك عن البيان على امتناع نزولها مع وجود هؤلاء الطغاة؛ فوجب اجتثاثهم.

فانتقم الله تعالى من القليل؛ ليرحم الكثير؛ إذ الكثير لا يرحم مع وجود القليل؛ فوجب بمقتضى فضل الله إعدام المانع، وفي المقام كلام ونقض وإبرام، لا مجال له هنا.

نصوص في أنّ البلايا والمحن خير

روى الكليني بإسناده عن عاصم بن حميد، عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام: «قال الصبر و الرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله، فيما قضى عليه، فيما أحب أو كره، لم يقض الله عز وجل له فيما أحب أو كره إلاّ ما هو خير له »[١].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٢].

وروى الكليني أيضاً بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: إنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالغنى والسعة و الصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن، فيصلح عليهم أمر دينهم، وإنّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده، فيتهجد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين نظراً منّي له، وإبقاء عليه، فينام حتى يصبح، فيقوم وهو ماقت لنفسه زارئ عليها، ولو أخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي، لدخله العجب من ذلك، فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه؛ لعجبه بأعماله، ورضاه عن نفسه، حتى يظن أنّه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدّ التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك، وهو

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٥٩. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٨: ٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

يظن أنّه يتقرب إليّ، فلا يتّكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي؛ فإنّهم لو اجتهدوا، وأتعبوا أنفسهم، وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين، غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي، فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جناتي، ورفيع درجاتي العلى في جواري، ولكن فبرحمتي فليثقوا، وبفضلي فليفرحوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا؛ فإن رحمتي عند ذلك تداركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي؛ فإني أنا الله الرحمن الرحيم و بذلك تسميت» [1].

قال المجلسي في المرآة: مختلف فيه، صحيح على الظاهر [2].

وهو صريح في أنّ مردّ أسباب البلاء وغاياته، هي الرحمة، وهي الغاية القصوى من الخلقة.

وروى الكليني بإسناده عن فضيل بن عثمان، عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلاّ كان خيراً له، وإنْ قرض بالمقاريض» [3].

قال المجلسي في المرآة: صحيح [4].

ورواه أهل السنةّ نحوه مختصراً، منهم أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) قال: حدثنا يحيى، عن سفيان قال: حدثني القاسم بن شريح، عن ثعلبة قال: سمعت أنساً يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «عجبت للمؤمن إنّ الله لم يقض قضاء، إلاّ كان خيراً له».

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٦٠. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٨: ٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٦٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٨: ٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.[١]

وروى الكليني عن أبي علي الأشعري، عن محمد بن عبد الجبار، عن محمد بن إسماعيل، عن علي بن النعمان، عن عمرو بن نهيك بياع الهروي، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام قال الله عز و جل: عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلاّ جعلته خيراً له؛ فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، أكتبه يا محمد من الصديقين عندي »[٢].

قال المجلسي في المرآة: مجهول[٣].

قلت: الحديث سقناه شاهداً، وهو معتبر بغيره.

وروى الكليني في هذا بإسناده عن الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن داود بن فرقد، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى بن عمران عليه السلام: «يا موسى بن عمران ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن؛ فإنّي إنّما أبتليه؛ لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه ما هو شر له؛ لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي؛ فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضائي وأطاع أمري»[٤].

---

(١) مسند أحمد (ت: شعيب الأرنؤوط) ١٩: ٢٠٣، رقم: ١٢١٦٠. الرسالة، بيروت.

(٢) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٦١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) مرآة العقول ٨: ٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٦٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

قال المجلسي في المرآة: صحيح [1].

وروى أهل السنّة في هذا أخباراً كثيرة، منها ما رواه الإمام الترمذي (٢٧٩هـ) قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

قال الترمذي: حديث حسن [2].

وقد رويناه من طرقنا عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن السري بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة» [3].

قلت: إسناده مختلف فيه، وهو معتبر بغيره على كلّ حال.

---

(١) مرآة العقول ٨: ٦ دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) سنن الترمذي (ت: بشار عواد) ٤: ١٧٩، رقم: ٢٣٩٦. دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٤٤٥. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

الأصل الثاني: الحب

مرّ ما رواه الكليني عن زيد الشحام، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ عظيم الأجر لمن عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلاّ ابتلاهم» (١).

قال المجلسي في المرآة: إسناده صحيح(٢).

ورواه من أهل السنّة الإمام الترمذي (٢٧٩هـ) بأدنى تغيير، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله إذا أحب قوماً ابتلاهم».

قال الترمذي: حديث حسن (٣).

يدلّ عليه أيضاً ما رواه الكليني عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن ابن رئاب، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ لله عز وجل عباداً في الأرض، من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض إلاّ صرفها عنهم إلى غيرهم، ولا بليّة إلاّ صرفها إليهم» (٤).

قال المجلسي في المرآة: ضعيف على المشهور (٥).

والحديث: ظاهر أنّ الأصل لهذا هو الحبّ؛ والقرينة: «خالص عباده».

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ١٠٩. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٨: ١٩٨. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) سنن الترمذي (ت: بشار عواد) ٤: ١٧٩، رقم: ٢٣٩٦.دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٤) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٥) مرآة العقول ٩: ٣٢١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

يشهد له أيضاً ما رواه الكليني بإسناده عن عن مثنى الحناط، عن أبي أسامة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الله عز وجل لو لا أن يجد عبدي المؤمن في قلبه لعصبت رأس الكافر بعصابة حديد لا يصدع رأسه أبداً»[١].

قال المجلسي في المرآة: موثّق كالصحيح[٢].

قلت: وهو نصٌّ أنّ البلاء يدور مع المؤمنين ممّن يحبهم الله تعالى، لا الكافرين ومن يبغضهم الله تعالى من الناصبة وغيرهم؛ والغرض هو تطهيرهم وتهيئة أوعيتهم؛ لنيل رحمة الله وفضله.

يشهد له أيضاً ما رواه الكليني رضوان الله عليه بإسناده عن عبد الله بن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله مثل المؤمن كمثل خامة الزرع، تكفئها الرياح كذا وكذا، وكذلك المؤمن تكفئه الأوجاع والأمراض، ومثل المنافق، كمثل الإرزبة المستقيمة التي لا يصيبها شيء حتى يأتيه الموت فيقصفه قصفاً »»[٣].

قال المجلسي في المرآة: حسن كالصحيح[٤]. قلت: الإرزبة: عصبة من حديد.

وروى الكليني بإسناده عن ابن محبوب، عن زيد الزراد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ عظيم البلاء يكافأ به عظيم

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٩: ٣٢٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٩: ٣٤٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

الجزاء؛ فإذا أحبّ الله عبداً ابتلاه بعظيم البلاء؛ فمن رضي، فله عند الله الرضا، ومن سخط البلاء؛ فله عند الله السخط»[١].

قال المجلسي في المرآة: مجهول[٢].

قلت: صحّح إسناده جماعة من العلماء، بناءً على أنّ ابن محبوب من أصحاب الإجماع.

يشهد لذلك أيضاً ما رواه الكليني بإسناده عن أبي أسامة، عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام: «إنَّ الله عزَّ وجلّ ليتعاهد المؤمن بالبلاء، كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية من الغيبة، ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض»[٣].

قال المجلسي في المرآة: مرسل[٤].

قلت: سقناه شاهداً، كونه يصلح لذلك.

وبذلك ينكشف سرّ كثرة الابتلاءات التي تعرض للمؤمنين، فإنهم يتنقّلون من بلاء إلى بلاء، كما لو سرى البلاء في حياتهم مسرى الدماء في العروق؛ إذ الغاية هي تطهيرهم؛ لينالوا عالي الدرجات وسامي المقامات.

يشهد له أيضاً ما رواه الكليني بإسناده عن حماد، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً غتّه بالبلاء غتاً، وثجّه بالبلاء ثجاً،

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٩: ٣٢٨. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٤) مرآة العقول ٩: ٣٢٨. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

فإذا دعاه قال: لبيك عبدي لئن عجلت لك ما سألت إنّي على ذلك لقادر، ولئن ادخرت لك فما ادّخرت لك فهو خير لك»[١].

قال المجلسي في المرآة: ضعيف على المشهور[٢].

قال العلّامة المجلسي في شرحه للحديث: «ثجّه - أي: أساله - أي ثجَّ عليه البلاء، ويكون تسييله كناية عن شدّة ألمه وحزنه، كأنّه يذوب في البلاء ويسيل، أو عن توجّهه إلى جناب الحقّ سبحانه بالدعاء والتضرّع لدفعه. وقيل: أي أسال دم قلبه بالبلاء»[٣].

وبذا يُعلم سرّ إحاطة البلاء بالأنبياء عليهم السلام، ثمّ الصالحين، ثمّ من سواهم.

وروى الكليني بإسناده عن الحسن بن محبوب، عن عبد الرحمن بن الحجاج، قال ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام البلاء وما يخص الله عز وجل به المؤمن. فقال عليه السلام: «سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أشد الناس بلاء في الدنيا؟!. فقال النبيّون، ثمّ الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه، وحسن أعماله؛ فمن صح إيمانه، وحسن عمله، اشتد بلاؤه، ومن سخف إيمانه و ضعف عمله قل بلاؤه »[٤].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٥].

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٩: ٣٢٧. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) نفس المصدر السابق ص٢٠٩.

(٤) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٥) مرآة العقول ٩: ٣٢٦. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

وروى الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ أشدَّ الناس بلاءً الأنبياء ثمَّ الذين يلونهم، ثمّ الأمثل فالأمثل»[1].

قال المجلسي في المرآة: حسن كالصحيح[2].

---

(١) الكافي (ت: علي غفاري) ٢: ٢٥٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) مرآة العقول ٩: ٣٢١. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

خلاصة الفصل

الملاحظ من مجموع ما مرّ من المبحثين، أنّ لله تبارك وتعالى غرض بحسب كلّ سبب من الأسباب المتقدمة، فالغاية من البلاء والمصائب الناتجة من ارتكاب العبد للذنب هي رفع ما تلوث به من الخبث والرين الذي أصاب قلبه؛ فلحبّ الله تعالى لعباده، ورحمته به، يصيبهم ببعض البلاء؛ ليطهّرهم من درن الذنوب، فهي نوع عقوبة تأديبيّة لهم في الدنيا؛ لينجيهم بها من عقوبات الآخرة، كما أشارت الأحاديث الثابتة السابقة؛ فإنّه تعالى أحلم وأجود وأمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة.

هذا فيما يخصّ سبب التطهير لنزول البلاء، ولا ريب في كونه رحمة.

وأمّا السبب الآخر، وهو: رفع الدرجات عند الله سبحانه وتعالى، فالغاية منه واضحة من العنوان؛ ولا إشكال في حسن هكذا بلاء، تكون عاقبته رفع الدرجات؛ ولهذا وعد الله تعالى عبيده بأفضل الجزاء.

وقد سردنا آنفاً بعض الأخبار المعتبرة في ذلك، منها: قول الإمام الصادق: «إنّ في الجنة منزلةً لا يبلغها عبدٌ إلّا بالابتلاء في جسده».

ولا ريب في أنّ كلّ هذا رحمة من الله وفضل.

وأمّا ما يخص سببيّة البلاء لتذكير العبد بربه وإرجاعه إليه تعالى، فوجه حسنه أنّه قد تحين من الإنسان ساعة يغفل بها عن مولاه وفقره إليه، فيبتليه الله تبارك وتعالى ويفتنه ليعود إلى حضيرة قدسه، فإنَّ الله تعالى شديد الغيرة على عبده المؤمن،

وأنّه لشدّة غيرته على محبوبه، لا يحبّ أن تحين التفاتة من عاشقه إلى سواه؛ فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الله يغار للمؤمن، فَلْيَغرْ من لا يغار، فإنَّه منكوس القلب»(١).

وذلك أنَّ البلاء أدعى إلى الالتصاق بالله تعالى وإلى التذكّر، وأقوى دفعاً إلى الشكر والصبر، وطلب المعونة واستعراض الفقر والضعف والحاجة إليه تعالى، والغفلة والكبر ونحو هذه الأمور من الرذائل موانع تمنع نزول الرحمة، فيصيبه ببعض البلاء لتحصيل حالة الفقر والانكسار الذي هو عبارة عن تواضع الإنسان ومعرفته لمقام ربه، فيكون ذلك سبباً لنزل النعم.

من هنا نخلص إلى أنّ البلاء والابتلاء على خلاف ما تعارف بيننا هو رحمة منه تعالى ونعمة وخير وفضل ومنّة، يجب تقديم الشكر عليها، لذا نجد بعض الأولياء كان لا يُرى فَرِحاً إلاّ عند ابتلائه.

فالبلاء بمعنى المحنة والشدّة، رحمة في آخر المطاف؛ إذ الأمور بعواقبها، وقد اتّضح بما لا شكّ فيه أنّ عاقبة كلّ بلاء ومصيبة، هي رحمة من الله تعالى وفضل ومنّة، والنصوص القطعيّة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام، من طرق الفريقين، أوضحت هذا بيقين..

فما من بلاء ومصيبة ومحنة إلاّ وغاية الله تعالى القصوى منها هي اللطف بعباده.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٦ ص١١٥.

الفصل الثالث

الموقف عند البلاء

ومسائل مهمة أخرى

المسألة الأولى
هل البلاء خيرٌ أم شرّ؟!

اتّضح ممّا تقدم أنّ الغاية القصوى من البلاء والمصيبة والمحنة، هي الرحمة بالعباد في آخر المطاف، ينبغي للمؤمن أن يفرح بها، ويمكن الاستدلال على حسن البلاء بقوله تعالى: ﴿قُلْ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، فما من شيء إلاّ وهو مخلوق له تعالى.

و عن زرارة بن أعين، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله خلو من خلقه، وخلقه خلو منه وكلّ ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله فهو مخلوق والله خالق كل شيء تبارك الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾»[2].

فإذا أضفنا ما تقدم لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[3]، يتبين أن كل شيء مخلوق، فهو مخلوق حسن؛ فالخلقة والحُسن متلازمان متصاحبان لا ينفك أحدهما عن الآخر أصلاً.

وبما أنّ البلاء بمعنى المصيبة مخلوق، فهو بمقتضى الآية المتقدمة أمر حسن، لا ريب في ذلك، من هنا نفهم قول العقيلة زينب عليها السلام عند قول ابْنُ زِيَادٍ لها: «كَيْفَ رَأَيْتِ صُنْعَ اللهِّ بِأَخِيكِ وَأَهْلِ بَيْتِكِ؟! فَقَالَتْ عليها السلام: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً»[4].

---

(١) سورة الرعد: ١٦.

(٢) الكافي: كتاب التوحيد: باب اطلاق القول بأنه شيء: ح٤.

(٣) سورة السجدة: ٧.

(٤) بحار الأنوار: ج٤٥، ص١١٥.

إذ لا يصدر عن الله تعالى قبح، وقد مرّ أنّ صنع الله تعالى بالحسين أرواح العالمين له الفداء في كربلاء، يعني رفع درجاته التي منها: شفاعته للخطائين من شيعته إذا زاروا قبره المطهّر، بل قد جعل الله تعالى فيهم بسبب الزيارة، ما به يحنّون لقبره الذي هو روضة من رياض الجنّة ومرتع الملائكة المقربين، كما يحنّ الفصيل للناقة، فهل هناك جمال وحسن وبهاء يقارن بهذا عند الموالين الخطّائين؟!!

هذا هو الجمال الذي قصدته مولاتنا زينب أرواح العالمين لها الفداء.

إشكال: السيّء قبيح فكيف يكون حسناً؟!.

فإنْ قلت: إنّ الله تبارك وتعالى قد وصف بعض الابتلاءات بالمصيبة والسيئة كما في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ۞ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِالله شَهِيداً﴾**[1]، فالآية صريحة بوصف بعض الابتلاءات بالمصيبة والسيئة؟!.

قلنا: يمكن القول اختصاراً: إن وصف القرآن لهذه الابتلاءات بالسيئة والمصيبة ليس لأنها في نفسها سيئة ومضرة، وإنما وصفها كذلك بالقياس لما كان يتمتع به العبد قبل الابتلاء من النعمة، فالفقر بالقياس لما كان يتمتع به قبل الابتلاء من نعم هو سيئة أي هو نقص وعدم، والمرض بالقياس لما كان يتمتع به من صحة هو سيئ ومصيبة، وأما هذا الفقر والمرض من دون قياس لما فات فهو حسن في ذاته لما يترتب عليه من فوائد مر ذكرها، كإزالة درن الذنوب وقذارة المعاصي عن العبد

---

(١) سورة النساء: ٧٨-٧٩.

وتطهيره منها، حتى لا يصيبه العقاب الأخروي، ولإرجاع العبد لساحة قدس الله تبارك وتعالى وتنبيهه من الغفلة، أو رفع درجته.

وإذا أحببت بسط الكلام فنقول: المفاهيم على قسمين:

الأول: المفاهيم الحقيقية: وهي المفاهيم التي نصف بها الأشياء لذاتها ومن دون قياسها للغير، وعدم ملاحظة أي شيء آخر، كمفهوم الماء والكتاب والقمر والشمس ونحوها كثير.

فهذه المسميات لا تتغير تسميتها إذا قسناها إلى أي شيء آخر.

الثاني: المفاهيم الإضافية: وهي المفاهيم التي نصف بها الأشياء بالقياس وبلحاظ شيء معين، مثلاً تقول زيد أكبر من عمرو، فوصفته بالكبر بالقياس إلى شخص معين وهو عمرو، وقد يكون زيد في نفسه طفلاً أو صبياً لم يبلغ الحلم.

فمفهوم مثل الكبر والصغر والطول والقصر والفوقية والتحتية هي مفاهيم إضافية توصف بها الأشياء بالقياس إلى غيرها.

ومفهوم السيئة والحسنة من هذا القبيل، فقد يكون شيء حسن في نفسه، سيئاً بالقياس إلى شيء آخر.

ولزيادة البيان والتوضيح حول المفاهيم الإضافية نقول: كانت ولا تزال غاية كل إنسان هو سعادة الحياة الإنسانية والتمتع فيها، وعلى هذا الأساس صار كل ما يُتوصل به إلى هذه الغاية حسن، وما لا يلائمها قبيح، وبما إن سعادة الإنسان في الاجتماع، لأنه مدني بطبعه صار كل ما يحقق سعادته في ضمن الاجتماع حسناً في نظره، وما يضاده قبيح، فالعدل حسن، والإحسان إلى مستحقه حسن، و التعليم والتربية و النصح وما أشبه ذلك في مواردها حسنات، والظلم والعدوان وما أشبه

ذلك سيئات قبيحة لملاءمة القبيل الأول لسعادة الإنسان أو لتمتعه التام في ظرف اجتماعه و عدم ملاءمة القبيل الثاني لذلك.

ومن الأفعال ما حسنه دائمي ثابت إذا كانت ملاءمته لغاية الاجتماع وغرضه دائمي كالعدل، ومنها ما قبحه كذلك كالظلم.

ومن الأفعال ما يختلف حاله بحسب الأحوال والأوقات والأمكنة أو المجتمعات فالضحك والدعابة حسن عند الخلان لا عند الأعاظم، وفي محافل السرور دون المآتم، ودون المساجد والمعابد، والزنا وشرب الخمر حسن عند الغربيين دون المسلمين.

وما نريد ن نقوله هنا باختصار إن الأفعال لا تقتضي حسناً لذاتها ولا قبحاً، وما ينالها من هذين الوصفين فهو بحسب ملائمة الفعل للغاية، فما كان من الأفعال موصلاً للسعادة فهو حسن، وما لا يلائم هذا الغرض ويضاده قبيح، وأما نفس الفعل فليس له حسن في ذاته ولا قبح.

فالأمور بعواقبها؛ فصحيح أنّ مقتل الحسين عليه السلام على سبيل المثال، سيّء قبيح من حيث هو اجتراء على الله تعالى فيمن اصطفاهم عليهم السلام، لكنّه من حيث كونه يؤدّي إلى هداية الخلق، ونيل الشفاعة، وتجديد العهد و...، والتي هي مما يحقق سعادة الفرد فهي عين الحسن والجمال.

وكذا الموت؛ فإنّه – في نفسه – سيّء جدّاً؛ إذ خروج الروح عن البدن أمرٌ صعب، لكنّه من حيث كونه انتقالاً من عالم الدنيا الخسيس، الذي هو عالم الأمراض والحرّ والبرد والبول والغائط والدم والجيف و...، إلى عالم البرزخ الشريف المنزّه عن كلّ هذه الأمور الخسيسة، عين الحسن والجمال والجلال.

فالبلاء بمعنى المصيبة، ليس حسناً في ذاته، بل باعتبار الغاية؟!

فهو من قبيل الكذب، فهو سيّء قبيح، لكنّه باعتبار الإصلاح يكون حسناً جميلاً.

وعليه فهذه المصائب والابتلاءات لا توصف بالحسن والقبح لذاتها، وإنما وصفناها بالحسن فمن جهة إنها فعله تعالى وخلقه، وقد تقدم أن كل فعله حسن ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[1]، وأما وصفها بالمصيبة والسيئة، فلفقدها الغرض والغاية وهي إيصال الإنسان إلى السعادة، فالفقر والمرض ونحوهما يمنعان الإنسان من التنعم بهذه الحياة الدنيا، فصح إطلاق المصيبة والسيئة عليها من هذه الجهة، فمن جهة نسبة الأفعال إلى الله تعالى فهي حسنة، ومن جهة نسبتها إلى الإنسان سيئة ومصيبة.

---

(١) سورة السجدة: ٧.

المسألة الثانية
البلاء والمصيبة من الله أم من العبد؟!!

صرحت بعض الآيات الكريمة بنسبة هذه المصائب والبلايا للعبد، كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(١)، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾(٢)، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٤)، وغيرها من الآيات التي قد يتوهم تعارضها مع الفئة السابقة من الآيات الدالة على نسبة المصائب ومطلق البلايا له تعالى، كقوله عز من قائل: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٦)؟

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) سورة الأنفال: ٥٣.

(٤) سورة الرعد: ١١.

(٥) سورة النساء: ٧٨.

(٦) سورة الأعراف: ١٣١.

ما يجب الالتفات إليه أنّ نسبة هذه المصائب والابتلاءات للإنسان لا يتنافى مع نسبتها إليه تعالى، وذلك لما تقدم من صدورها من تعالى ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وأما نسبتها الى الإنسان فمن جهة أنه سبب في صدورها منه تعالى، فقد تقدم أن سبب توصيف هذه الأفعال بالمصيبة والسيئة لفقدها الغرض وهو إيصال الإنسان إلى السعادة والتمتع بهذه الحياة، فهذه النوازل تمنعه من الوصول إلى سعادته، وهذا الحرمان وقصره عنها بسبب ما قدمه من أخطاء وذنوب.

فانتساب هذه المصائب للإنسان لا من جهة الوجود والصدور وإنما من جهة التسبيب لها، ففعل العبد قد يقتضي الإنعام عليه من الله، وقد يقتضي حرمانه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[2]، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4]، صريح فيما تقدم من سببية ما يقدمه العبد في تقدير الله وقضاءه.

من هنا يظهر وجه الغاية التي ذكرناها للبلاء، وهي تطهير العبد من درن الذنوب والمعاصي، وذلك أن الله تعالى لم ينه عبده من فعلٍ إلاّ لما يستتبعه من عواقب تضره، فإذا ارتكبها العبد نالته هذه العواقب، وعليه فيكون مثل هذا البلاء أقرب إلى الجزاء.

---

(١) سورة الزمر: ٦٢.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) سورة الأنفال: ٥٣.

(٤) سورة الرعد: ١١.

ونختم الجواب بآية صريحة وحديث صحيح فيما قدمناه، أما الآية فهي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ۞ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾[١]، فتقرر الآية الكريمة، إن سبب ابتلائهم بالتقتير في الرزق إنما كان بسبب ما صدر منهم من عدم اكرام اليتيم والاهتمام بالمساكين.

وأما الحديث فهو ما رواه الكليني عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «قال الله: يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذاك أنّي أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك منّي، وذاك أنّني لا أسأل عمّا أفعل وهم يسألون »[٢].

قال المجلسي في المرآة: صحيح[٣].

قلت: فمجموع قوله تعالى: « يا ابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء » وقوله سبحانه: « وبنعمتي قويت على معصيتي» يظهر وجه عدم المنافاة.

والنتيجة: يصح نسبة المصائب والبلايا لله تبارك وتعالى من جهة إنها فعله وايجاده، ونسبتها للإنسان من جهة انه سبب لما قضاه تعالى وقدره وأوجده.

---

(١) سورة الفجر: ١٥-٢٠.

(٢) الكافي (ت: علي غفاري) ١: ١٥٣. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٣) مرآة العقول ٢: ١٦٢. دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

المسألة الثالثة
البلاء بالخير وبالشرّ

أشار القرآن الكريم لهذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1] والبلاء هنا بمعنى الاختبار، والاختبار على قسمين: فتارة هو اختبار بالشرّ والمحن والمصائب، وأخرى اختبار بالخير والنعم.

يقول الراغب الأصفهاني صاحب المفردات: «و جعلت الفتنة كالبلاء في أنهما تستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى، وأكثر استعمالاً، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾»[2]، انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ويقول صاحب الميزان في تفسير الآية المتقدمة: «أي ونمتحنكم بما تكرهونه من مرض وفقر ونحوه وما تريدونه من صحة وغنى ونحوهما امتحاناً»[3].

وعليه فينقسم البلاء - بمعنى الاختبار - إلى قسمين: ابتلاء[4] بالشر أي بالشدائد، وابتلاء بالخير أي بالرخاء والغنى، أو قل: ابتلاء منحة ومحنة، ومنه نعرف صحة وجواز أن يقول المبتلى بمرض أو فقر ونحوها إذا سئل عن حاله: إنّه بشر، فلا يجب عليه أن يقول بخير، فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص٦٢٣.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج١٤ ص٢٨٧.

(٤) تقدّم في الفصل الأوّل أنّ البلاء بمعنى الاختبار، يرادف معنى الابتلاء.

مرض فعاده إخوانه فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: بِشرٍ. قالوا: ما هذا كلام مثلك قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فالخير الصحة والغنى والشر المرض والفقر[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ابتلاء الشر من خلال عدة آيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[٢].

وأشار إلى ابتلاء الخير من خلال قوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٣].

وأشار لكلا القسمين بقوله: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ۞ وَتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً﴾[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٤٣.

(٢) سورة البقرة: ١٥٥.

(٣) سورة النمل: ٤٠.

(٤) سورة الفجر: ١٥-٢٠.

المسألة الرابعة
ما هو الموقف الشرعي من ذلك؟!!

ما يهمنا في التقسيم المذكور معرفة الموقف الشرعي حياله، بعبارة أخرى كيف يتصرف الإنسان حين يبتليه ربه بالشر، وكيف يتصرف حين يبتليه بالخير؟!.

وقد تقدم قول الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ) في التبيان: وقيل للنعمة: بلاء، وللمضرة أيضاً مثل ذلك؛ لأنّ أصله ما يظهر به الأمر من الشكر أو الصبر، ومنه: يبتلي بمعنى: يختبر ويمتحن، وسميت النعمة بذلك لإظهار الشكر، والضر لإظهار الصبر الذي يجب به الأجر[1].

وقال الراغب في مفرداته: إن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر[2].

وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

فإذا تفضل الله تبارك وتعالى على عبده بموفور الصحة والأمان والرزق، فلابد عليه أن يشكر، وهل يختص الشكر بالقول باللسان كأن يقول العبد (الحمد لله رب العالمين)؟

سيأتي لاحقاً – إن شاء الله – بيان معنى الشكر المذكور في الآية الكريمة.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن (أحمد العاملي) ٥ : ٩٤. مكتب الاعلام الاسلامي.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ج١ص٧٩.

وأمّا ما يخص موقف الإنسان عندما يبتليه ربه بالشر، كما لو أفقره أو أمرضه أو أفقده الأمان ونحو ذلك من فروض الابتلاء والفتنة، فنستفاده من قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾(١).

فالآية الكريمة واضحة أن المطلوب عند الابتلاء بالشر الصبر، وكذلك سيأتي معنى الصبر الوارد في الآية.

والخلاصة: يجب على العبد عند الابتلاء بالخير الشكر، وعند الابتلاء بالشر الصبر.

معنى الشكر وحقيقته:

تعرف حقيقة الشكر من خلال معرفة ما يقابله وهو الكفر قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٢)، فقابل تعالى بين الشكر والكفر، يقول أستاذ الفقهاء والمجتهدين السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي في تفسيره القيم: (والشكر مقابل الكفران، وهو لا يكون إلا للإنعام والإحسان)(٣)، وحقيقة الكفر هي الستر والإخفاء فتكون حقيقة الشكر هو إظهار النعمة، لذا قال العلامة الطباطبائي: حقيقة الشكر إظهار النعمة كما أن الكفر الذي يقابله هو إخفاؤها والستر عليها.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

(٢) سورة النمل: ٤٠.

(٣) البيان في تفسير القرآن: ص٤٥٣، الطبعة الرابعة، دار الزهراء.

وقال الراغب: «الشكر تصور النعمة وإظهارها» [١]، انتهى.

وإظهار النعمة يتم من خلال أمرين:

الأول: ذكر المنعم بها لساناً وهو الثناء، وقلباً من غير نسيان، وذلك من خلال نسبة النعمة لله تبارك وتعالى وأنه منه تفضل ورحمة، لم ينلها الإنسان بما يملك من الأسباب.

ومن ذلك ما حكاه الله من ثناء داود وسليمان عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الحمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤْمِنِينَ**﴾[٢].

فلم يقولا مثل ما حكى عن غيرهما، كقول قارون لقومه إذ وعظوه أن لا يستكبر في الأرض بماله: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾[٣]، و كما حكى الله عن قوم آخرين: ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**﴾[٤].

و من ذلك ما حكاه عن سليمان ﷺ في قصة النملة بقوله: ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ**

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٦٥.

(٢) سورة النمل: ١٥.

(٣) سورة القصص: ٧٨.

(٤) سورة المؤمن: ٨٣.

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

ذكرته النملة بما قالته ما له من الملك العظيم الذي شيّدت أركانه بتسخير الريح تجري بأمره، و الجن يعملون له ما يشاء و العلم بمنطق الطير و غيره، غير أن هذا المُلك لم يقع في ذكره، و لم يُنسه عبوديته و مسكنته بل إنما وقع في نفسه في صورة نعمة أنعمها عليه ربه فذكر ربه و نعمته أنعمها عليه و على والديه بما خصهم به.

وفي الحقيقة يمثل الشكر وجه مهم من وجوه تنزيه الله وشعبة من شعب التوحيد الأفعالي لما فيه من اعتقاد واعتراف بأن لا مؤثر في الوجود غيره تعالى وإن الأمر كله لله، وغيره لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، من هنا نفهم الارتباط بين الشكر والذكر والوجه بأمره تعالى لعباده بالشكر حين قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[٢].

الثاني: استعمال النعمة في المحل الذي أراده المنعم منها.

ويكفي فيه ما رواه القرآن حكاية عن القوم المؤمنين الذين نصحوا قارون: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المفْسِدِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة النمل: ١٩.

(٢) سورة البقرة: ١٥٢.

(٣) سورة القصص: ٧٦-٧٧.

فشكره تعالى على نعمة من نعمه أن يُذكر عند استعمالها ويوضع النعمة في الموضع الذي أراده منها ولا يتعدى ذلك.

قال الجرجاني: (الشكر صرف العبد جميع ما أنعمه الله تعالى فيما خلق لأجله)(١).

فمن نعمه تعالى شأنه على عبيده نعمة البصر وشكرها بالإضافة إلى الثناء باللسان، أن تصرف هذه النعمة فيما أراده تعالى منها، ومن نعمه تعالى أنه وهبنا السمع والنطق، فحقيق بنا أن يصرفا فيما يحب ويرضا.

فبهذه الوسائل نخطو إلى التكامل، وندرك الحقّ وندافع عنه ونحارب الباطل، فإذا صرفنا النعم الإلهيّة في هذا المسير كان ذلك هو الشكر العملي له، وإذا أصبحت هذه الأدوات وسيلة للطغيان والغرور والغفلة والابتعاد عن الله فهذا هو عين الكفران!

وهنا يتّضح أنّ شكر العلم والمعرفة والفكر والمال والسلامة، كلّ واحد منها من أي طريق يتمّ؟ وكيف يكون كفرانها؟

ومن هنا نفهم قوله تعالى: **﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**(٢)، وقول الإمام أَبِي عَبْدِ الله الصادق ﵇ حيث قالَ: «شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنَابُ المَحَارِمِ، وَتَمَامُ الشُّكْرِ قَوْلُ الرَّجُلِ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ»(٣).

---

(١) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني: ج١ ص١٦٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٣.

(٣) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، ح ١٠.

وقد جمع قول الإمام الصادق عليه السلام كلا الأمرين المذكورين بقوله: «أدنى الشكر رؤية النعمة من الله من غير علّة يتعلّق القلب بها دون الله، والرضا بما أعطاه، وأنّ لا تعصيه بنعمة وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب من نعمته»(١).

معنى النعمة

وبما أن المقام في الكلام عن حقيقة الشكر ناسب أن نذكر معنى النعمة المقتضية للشكر، فإن نفس كلمة النعمة تدل على وجود منعم يحكم العقل بوجوب شكره، لذا نجد جاحدي النعم يرفضون تسمية ما رزقهم الله تعالى بالنعم، لكي لا تلزمهم عقولهم بوجوب شكرها، قال تعالى حكاية عنهم: **﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾**(٢)، فلاحظ كيف عبر هذا الجاحد عن النعمة بالضمير هرباً مما ذكرنا، وكقول قارون: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾**(٣)، لذا ينبغي التوقف قليلاً عند معنى النعمة فنقول:

الموجودات وإن كانت جميعها يصدق عليها إنها نعم منه تعالى لقوله تعالى: **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾**(٤)، وقال: **﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾**(٥)، إلاّ أنه تعالى وصف بعضها بالشر والخسة واللعب واللهو وأوصاف أُخر غير ممدوحة كما قال: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا**

---

(١) سفينة البحار، المجلد الأوّل، ٧١٠.

(٢) سورة الزمر: ٤٩.

(٣) سورة القصص: ٧٨.

(٤) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٥) سورة لقمان: ٢٠.

نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(١)، وقال: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾**(٢)، وقال: **﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾**(٣)، إلى غير ذلك.

من هنا نلتفت إلى أنّ الكثير مما نسميه نعمة أو هو في الظاهر نعمة ليس كذلك، فالنعمة وصف عارض قد يتصف به الشيء أحياناً ويسلب منه أحياناً أخرى.

من هنا ينبغي أن نسأل: متى يكون الشيء نعمة، أو قل ما هو الملاك والضابطة فيها؟

نستفاد من دلالة الآيات على أن هذه الأشياء المعدودة نعماً إنما تكون كذلك إذا وافقت الغرض الإلهي من خلقتها لأجل الإنسان، فإنها إنما خلقت لتكون إمداداً إلهياً له يتصرف فيها في سبيل سعادته الحقيقية، وهي القرب منه سبحانه بالعبودية والخضوع للربوبية، قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**(٤).

فكل ما تصرف فيه الإنسان للسلوك به إلى حضرة القرب من الله وابتغاء مرضاته فهو نعمة، وإن انعكس الأمر عاد نقمة في حقه، فالأشياء في نفسها مجردة عن وصف كونها نعمة أو نقمة، وإنما هي نعمة لاشتمالها على روح العبودية.

ومن هنا يتضح إن أي موجود من الموجودات لا يكون نعمة إلاّ إذا كان موصلاً لمقام القرب منه تعالى، واستعماله في غير هذا السبيل يجعله نقمة تقتضي العقوبة، وقطعاً لا يجوز أن يكون مثل هذا شكراً للمنعم، والله تبارك وتعالى لا يريد

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٧.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

(٤) سورة الذاريات: ٥٦.

بنعمة من نعمه إلاّ أن تستعمل في سبيل عبادته، قال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١)، فشكره على نعمته أن يطاع فيها ويذكر مقام ربوبيته عندها.

الشكر يقتضي زيادة النعمة والكفر – الجحود - يقتضي زوالها.

وبما مر تتضّح أيضاً العلاقة بين الشكر وزيادة النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢)، لأنّ الناس لو صرفوا النعم الإلهيّة في هدفها الحقيقي، فسوف يثبتون عمليّاً استحقاقهم لها وتكون سبباً في زيادة الفيوضات الإلهيّة عليهم.

وقد تقدم أنّ حقيقة الشكر متقومة بأن يستفيد الكائن الحي من مواهبه تعالى في تكامله وقربه منه تعالى، فإذا أثبت العبد استحقاقه لهذه النعم بشكرها أي بصرفها في غايتها المطلوبة منها، فإنه تعالى يرجع على عبده بالمزيد منها.

ولتقريب الفكرة بمثال من واقعنا، فمثلاً يرى المزارع أنّ القسم الفلاني من مزرعته تنمو فيه الأشجار بشكل جيد، وكلّما يخدمها أكثر تنتج أكثر، فهذا الأمر سوف يؤدّي إلى أنّ يقوم المزارع على خدمة وتربية ذلك القسم بشكل أكبر، ويوصي مساعديه بها، لأنّ الأشجار تناديه بلسان حالها: أيّها المزارع، نحن لائقون مناسبون، أفض علينا من النعم، وهو يجيبهم بالإثبات.

أمّا إذا رأى في قسم آخر أشجاراً ذابلة ويابسة وليس لها ثمر، فكفران النعمة من قبلها بهذه الصورة يسبّب عدم اعتناء المزارع بها، وإذا استمرّ الوضع بهذا الحال سوف يقوم بقلعها.

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

وهذه الحالة موجودة في عالم الإنسانيّة بهذا التفاوت، وهو أنّ الأشجار ليس لها الاختيار، بل هي خاضعة للقوانين التكوينيّة، أمّا الإنسان فباستفادته في إرادته واختياره وتربيته التشريعيّة يستطيع أن يخطو في هذا المجال خطوات واثقة.

ولذلك فمن يستخدم نعمة القوّة في الظلم، ينادي بلسان حاله: إلهي، أنا غير لائق لهذه النعمة، ومن يستخدمها لإقامة الحقّ والعدالة يقول بلسان حاله: إلهي، أنا مناسب ولائق فزد نعمتك عليّ!

وأما كون الجحود يقتضي زوال النعم فلقوله عز من قائل: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(١).

فالآية صريحة في عاقبة هؤلاء وأنهم سيصيبهم ما أصاب من قبلهم من سيئات، فهذه سنة الله فيهم ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(٢).

وذلك أن سعي الإنسان لتحصيل الرزق مثلاً ليس سبباً تاماً موجباً لحصوله وإلاّ لم يتخلف(٣) فكم من طالبٍ رجع آيساً وساعٍ خاب سعيه.

---

(١) سورة الزمر: ٤٩-٥١.

(٢) سورة فاطر: ٤٣.

(٣) لوجوب وجود المعلول عند وجود علته. قاعدة فلسفية بديهية أجمع عليها الحكماء.

فهناك إذن علل وشرائط زمانية ومكانية وموانع مختلفة باختلاف الظروف خارجة عن حد الإحصاء إذا اجتمعت وتوافقت أنتج ذلك حصول الرزق.

هذا كله في الأسباب الطبيعية، وواضح عدم دخول أكثرها تحت أرادة واختيار الإنسان، وأما ما عداها من الأسباب الغيبية فمن باب أولى.

فعاد الأمر حينئذ كله لله، وعدم شكره بمقتضى الآية موجب لقطع توفيقه فلا يبقى عند الإنسان غير أسبابه الظاهرية والتي اتضح إنها لا تسمن ولا تغني من جوع، فينتج من ذلك زوال النعمة لفقدان سببها.

قال أمير المؤمنين ﷺ في إحدى حكمه: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر»[1].

(١) نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم ١٣.

الشكر يفتقر إلى شكر

ثم إن هناك حقيقة أخرى غير قابلة ـ أيضاً ـ للترديد، وهي أنّنا في كلّ مرحلة من مراحل الشكر الإلهي ـ إن كان باللسان أو العمل ـ سوف نحتاج إلى شكر جديد لمواهب وعطايا جديدة، ولذلك فلسنا قادرين أن نؤدّي حقّ الشكر، كما نقرأ في مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين علي بن الحسين ﷺ: «كيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد»!

والوجه في ذلك يتضح من خلال هاتين المقدمتين:

الأولى: إن الشكر حسنة، وهذا واضح، لذا أمر به تعالى بقوله: **﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾**(١)، **وهو تعالى لا يأمر إلا بالحسن إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾**(٢).

الثانية: إن شيئاً من خلقه تعالى لا يقدر على شيء مما يقصده من الغاية، و لا يهتدي إلى خير إلا بإقدار الله و هدايته قال تعالى: **﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾**(٣)، و قال تعالى: **﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾**(٤). ويتبين بهاتين الآيتين معنى كون الحسنات لله عز اسمه، و هو أن الإنسان لا يملك حسنة إلاّ بتمليك من الله و إيصال منه فالحسنات كلها لله قال تعالى: **﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ...﴾**(٥) الآية.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) سورة طه: ٥٠.

(٤) سورة النور: ٢١.

(٥) سورة النساء: ٧٩.

ومما تقدم يتضح أن نفس الشكر هو حسنة لا يتوصل إليها الإنسان إلاّ بتوفيق منه تعالى، وعليه فيحتاج نفس الشكر إلى شكر جديد.

ولهذا فإنّ أعلى مراحل الشكر أن يُظهر الإنسان عجزه أمام شكر نعمائه تعالى، كما جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: اشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ، وكيف أشكرك حقّ شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى، الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»[1].

---

(١) أصول الكافي، المجلّد الرابع، صفحة ٨٠ باب الشكر.

مراتب الشكر

ومن خلال معرفة حقيقة الشكر، وإنها حقيقة مركبة من أمرين هما الثناء ووضع النعمة في الموضع الذي أراده تعالى منها، يتضح للشكر مراتب متعددة، فمنه ما يلازم الإخلاص التام ويختص بالمعصومين عليهم السلام، ومنه ما دون ذلك، ولزيادة بيان الأمر نذكر هذه المقدمات:

المقدمة الأولى: وصف الله تبارك وتعالى بعض عباده بالشاكرين كقوله عز من قائل مخاطباً نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله: **﴿بَلْ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾**[1]، وقوله: **﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾**[2]، وقوله: **﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾**[3]، وقال: **﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾**[4].

المقدمة الثانية: إن إطلاق الفعل لا يدل إلاّ على تلبس ما، بخلاف الوصف فإنه يدل على استقرار التلبس وصيرورة المعنى الوصفي ملكة لا تفارق الإنسان، ففرق بين قولنا: الذين أشركوا، والذين صبروا، والذين ظلموا، والذين يعتدون، وبين قولنا: المشركين، والصابرين، والظالمين، والمعتدين، فالشاكرون هم الذين ثبت فيهم وصف الشكر واستقرت فيهم هذه الفضيلة، وقد بان أن الشكر المطلق هو أن لا يذكر العبد شيئاً – وهو نعمة – إلاّ وذكر الله معه، ولا يمس شيئاً – وهو نعمة – إلاّ ويطيع الله فيه.

---

(١) سورة الزمر: ٦٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٣) سورة الأنعام: ٥٣.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٤.

المقدمة الثالثة: إن الشكر التام الكامل لا يتم إلاّ مع الإخلاص لله سبحانه علماً وعملاً، فالشاكرون حقيقة هم المخلصون لله، الذين لا مطمع للشيطان فيهم.

و تظهر هذه الحقيقة مما حكاه الله تعالى عن إبليس، قال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ المخْلَصِينَ**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ المخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ**﴾[٢]، فلم يستثن من إغوائه أحداً إلاّ المُخلَصين، وأمضاه الله سبحانه من غير رد، وقال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[٣]، فبدل المُخلَصين بالشاكرين، وليس إلاّ لأن الشاكرين هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم، ولا صنع له لديهم، وإنما صنعه وكيده إنساء مقام الربوبية والدعوة إلى المعصية، وقد تقدم أن من أهم أركان الشكر هو نسبة النعمة إليه تعالى، مما يقتضي أن لا يرى العبد لنفسه ملكاً، وينسب كل خيرٍ لباريه، وهذا عين الإخلاص وأصحابه أندر من الكبريت الأحمر.

وهذه هي أعلى مراتب الشاكرين وهي ما يلازم الإخلاص التام.

لذا نجد الحق تبارك وتعالى قد رفع ذكر الشكر والشاكرين بقوله عز من قائل: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ**﴾[٤]، ففيه ترفيع لمقام أهل الشكر بأن المتمكنين في هذا

---

(١) سورة ص: ٨٣.

(٢) سورة الحجر: ٤٠-٤١.

(٣) سورة الأعراف: ١٧.

(٤) سورة سبأ: ١٣.

المقام قليلون وهم الأوحديون من الناس، في إشارة إلى أنّ مقام الشكر المطلق لا يناله إلاّ المُخلَصون.

وقد تبين مما مر أن مرتبة الشكر الكامل المطلق هي مرتبة المعصومين عليهم السلام، وهذه هي المرتبة الأسمى والأعلى للشكر، وبما إنه تعالى قد أمر في آيات عديدة جميع عباده بالشكر، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، وغيرها كثير فتكون مراتب شكرهم بحسب درجاتهم المتفاوتة.

وفي الختام

هناك أمران ينبغي الالتفات إليهما:

الأول: يجب الالتفات إلى أنّ الشكر والحمد ليس كافياً في مقابل نعمائه تعالى، بل يجب أن نشكر ـ كذلك ـ الأشخاص الذين كانوا وسيلة لهذه المواهب ونؤدّي حقوقهم من هذا الطريق، ونشوّقهم أكثر بالخدمة في هذا السبيل، كما نقرأ في الحديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «وإنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين ويحبّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لِمَ تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[3].

(١) سورة البقرة: ٥٢.

(٢) سورة المائدة: ٦.

(٣) أصول الكافي، الجزء الثّاني ـ ص٩٩ ـ ح٣٠.

لذا فإنّ إحياء روح الشكر في المجتمع وتقديمه إلى مستحقّيه وتقديرهم وحمدهم وثنائهم على خدمتهم في طريق تحقيق الأهداف الاجتماعية بعلمهم ومعرفتهم وإيثارهم واستشهادهم، هو عامل مهمّ في حركة ورُقيّ المجتمع.

الثاني: يصيب الكثير منّا الغرور فيما لو أنعم علينا الحق سبحانه وتعالى بنعمة، ونحسب ذلك استحقاق لنا لا فضلاً منه تعالى، وفيما لو ابتلانا الله تبارك وتعالى ببلية ما نُحمل المسؤولية تماماً لله سبحانه، حتى إن بعضهم – والعياذ بالله – يتجاسر على مقام الحق ويعتبره ظالماً له ومعتدياً عليه، وقد يصل الأمر إلى ترك العبادة والصلاة!!

وقد أشار الحق تبارك وتعالى لهؤلاء بقوله: **﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ۞ وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً﴾**[1].

فيحسب الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة أن ذلك إكرام إلهي، له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى ويكثر الفساد، وإذا أمسك وقدر عليه رزقه حسب أنه إهانة إلهية فيكفر ويجزع.

وقد غفل أن إكرامه تعالى له ليبتليه أيكفر أم يشكر كما تقدم، فلا ينبغي لمن أنعم الله عليه من فضله أن يغتر، وإنما هي مسؤولية واختبار قد ألقاه عليه ربه، لذا عبر عنه بقوله: **﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾**، وأما ابتلائه بالتقتير في الرزق ونحوه، فليس هو إهانة منه تعالى ابتداءً ولا عقوبة من دون سبب، وإنما هو جزاء ونتيجة

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥.

لعدم صرف النعمة فيما أمره الله به، فلم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين، وذلك كله كان بسبب حبهم للدنيا وملذاتها وإعراضهم عن الأخرة ودرجاتها.

كان ما تقدم بيان لحقيقة الموقف المطلوب من العبد الالتزام به حين الابتلاء بالخير، وهو الشكر، والآن حان الوقت للتعرف على حقيقة الصبر الذي يمثل الموقف المطلوب إزاء الابتلاء بالشر.

حقيقة الصبر:

كان ما تقدم بياناً للموقف تجاه الابتلاء بالخير، وأما الموقف تجاه الابتلاء بالشر فقد تقدم أنه الصبر، وحقيقته هي الوقاية من الجزع واختلال أمر التدبير[1]، فهو ضد الجزع، فعندما تصيب الإنسان نازلة ما تجده يخرج أحياناً عن حد التصرف اللائق بالعقلاء، مما يجعله عرضه للكثير من الأخطاء، وهنا يأتي دور الصبر ليقيه ويمنعه من ذلك.

فليس الصبر ما قد يتوهمه البعض بأنه تحمل الشقاء وقبول الذلة والاستسلام للعوامل الخارجية، وإنما يعني المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث، لذلك قال علماء الأخلاق إن الصبر على ثلاث شعب:

الصبر على الطّاعة: أي المقاومة أمام المشاكل التي تعتري طريق الطاعة.

الصبر على المعصية: أي الثبات أمام دوافع الشهوات العادية وارتكاب المعصية.

الصبر على المصيبة: أي الصمود أمام الحوادث المرّة وعدم الانهيار وترك الجزع والفزع.

و الصبر من أعظم الملكات والأحوال التي يمدحها القرآن، ويكرر الأمر به حتى بلغ قريباً من سبعين موضعاً، وقد قال فيه: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ**

---

(١) راجع في معناه الميزان في تفسير القرآن ج ١ ص١٩٩.

عَـزْمِ الأُمُـورِ﴾[١]، وقـال: ﴿وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلاَّ الَّـذِينَ صَـبَرُوا وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلاَّ ذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٣].

لماذا أمرنا الله بالصبر ؟

عرف القرآن الكريم الصابرين بقوله: ﴿وَبَشِّـرِ الصَّـبِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَآ أَصَـابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٤]، ومن المعلوم عدم أرادة مجرد التلفظ بالجملة من غير حضور معناها بالبال، ولا مجرد الإخطار من غير تحقق بحقيقة معناها، وهي كون الإنسان وجميع الموجودات – بما فيها الأسباب المادية التي يتوقع الإنسان أن تصيبه بالضرر – مملوك لله بحقيقة الملك، وهو المتصرف والمدبر لها بمقتضى ربوبيته تعالى لها، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلاّ عن إذن منه، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلاّ عن علم سابق منه ومشية لا يخطئ علمه ومشيته و لا يرد قضاؤه.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[٥]، وعليه فليس لموجود أن ينفع آخر او يضـرّه إلاّ بإذنه، فالأمر ليس راجعاً للأسباب الطبيعية وإن الأمر لله جميعاً.

فالإذعان بما تقدم يستعقب اهتداء النفس إلى هذه الحقائق واطمئنان القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية وإسناده المصائب والنوائب المرة إليها دون الله سبحانه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٢) سورة فصلت: ٣٥.

(٣) سورة الزمر: ١٠.

(٤) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٦.

(٥) سورة الأنعام: ١٨.

فإذا التفت الإنسان لهذه الحقيقة القرآنية أرجع الأمر كله لله وعلم إنه لا يصيبه شيئاً من آثار هذه الموجودات مهما عظمت إلاّ بإذنه تعالى، فيقول: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

فسبب الجزع هو توهم الإنسان تأثير الأسباب من دون الله، فيعتقد إن للسلطان أو المسؤول أو العدو أن يضره، فتصيبه حال من الخوف والاضطراب واليأس، أو إن أسباب النفع بيد فلان، فتصيبه حالة من النفعية والوصولية طلباً لنيل رضاه، وقد قيل: إن القلوب جبلت على حب ما ينفعها[2].

فإذا علم أنه ليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثر، وتحقق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، اطمأنت نفسه وسكنت روحه، وبه يتحقق أحسن الصبر الذي يقطع منابت الجزع والأسف، ويغسل رين الغفلة.

فإن قال قائل: ما الدليل على رجوع الأمر كله لله؟

نقول: قوله تعالى: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4]، وقال: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[1]، فأثبت فيها وفي نظائرها من الآيات الملك لنفسه

---

(١) سورة التغابن: ١١.

(٢) ورد عن النبي ﷺ«جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها». البحار: ٧٤، ص١٤٠.

(٣) سورة الأنعام: ١٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٨٩.

على العالم أجمع بما في ذلك الإنسان وكل الأسباب والموجودات، ومعنى ملكه أنه تعالى مالك على الإطلاق ليس بحيث يملكه من جهة ولا يملكه من جهة أخرى كما في الإنسان يملك عبداً أو شيئاً آخر فيما يوافق تصرفاته أنظار العقلاء، وأما التصرفات السفهية فلا يملكها، فملكه له ناقص إنما يصحح بعض التصرفات لا جميعها، فإن الإنسان المالك لعبد مثلاً إنما يملك منه أن يتصرف فيه بالخدمة وباقي الأعمال وأما أن يقتله عطشاً أو جوعاً أو يحرقه بالنار من غير سبب موجب فالعقلاء لا يرون له ذلك، أي كل مالكية للإنسان فهي مالكية ضعيفة إنما تصحح بعض التصرفات المتصورة في العين المملوكة لا كل تصرف ممكن، وهذا بخلاف ملكه تعالى للأشياء فإنها ليس لها من دون الله تعالى من رب يملكها وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأيد ملكيته تعالى لكل الموجودات أنه منع التصرف في ملكه إلاّ بأذنه فقال عز من قائل: **﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾**(٢)، وقال: **﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾**(٣)، فليس لأحد التصرف في ملكه تعالى إلاّ من بعد أذنه.

من هنا يتضح قوله تعالى في تعريف الصابرين: **﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾**(٤)، فهؤلاء يؤمنون إن الأمر كله راجع لله وهو وحده القادر

---

(١) سورة المائدة: ١٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٣) سورة يونس: ٣.

(٤) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٦.

على تبديل السيئات حسنات والكربات فرج، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[١]، ويؤمنون ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]، فهذه المعية معية معونة ونصرة.

علاقة الصبر بالعلم بالغيب

واسى القرآن الكريم المؤمنين بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٣].

فقررت الآية الكريمة أن كل ما يصيب المؤمنين من مصائب إنما هي من قضاء الله وقدره، وعلل ذلك بقوله: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، فدعت الآية إلى ترك الأسى و الفرح بأن الذي أصابكم ما كان ليخطئكم و ما أخطأكم ما كان ليصيبكم لاستناد الحوادث إلى قضاء مقضي و قدر مقدر، فالأسى والفرح لغو لا ينبغي صدوره من مؤمن يؤمن بالله الذي بيده أزمة الأمور كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وهنا قد يسأل سائل: قد مر سابقاً إن أكثر المصائب هي بسبب الذنوب التي اجترحها الإنسان بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٤]. فما هو الوجه بهذه المواساة؟

---

(١) سورة الشرح: ٥-٦.

(٢) سورة البقرة: ١٥٣.

(٣) سورة الحديد: ٢٢-٢٣.

(٤) سورة الشورى: ٣٠.

والجواب: ذكرنا في ما سبق ان بعض المصائب هي اختبار منه تعالى للمؤمنين ليظهر مكنونات أنفسهم قال تعالى: **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾**(١).

وأوضح منه قوله تعالى: **﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾**(٢).

وقوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**(٣).

فالآية محل البحث تختص بالمصائب والبلاءات التي تكون للاختبار ورفع الدرجات، وهي ما يصيب الأنبياء والأئمة والصالحين، لا لذنب اقترفوه، ولكن ليثيبهم عليها ويرفع درجاتهم، وأما المصاعب التي تكون بسبب ذنوب الإنسان وتسامحه في الطاعات والالتزامات الإلهيّة، فإنّها خارجة عن هذا البحث، ولمواجهتها لابدّ من وضع برنامج صحيح في حياة الإنسان.

إشكال:

وقد يقول قائل: إن إرجاع الأمر كله لله فيه إبطال للاختيار وإثبات للجبر، فلو جاز الاستناد إلى كون الحوادث مكتوبة في لوح محفوظ، و مقضية بقضاء محتوم، كما

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠-١٤٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٣) سورة التوبة: ١٦.

في الآية السابقة ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]. أمكن الاستناد إلى ذلك في ترك طلب الرزق، وكسب كل كمال مطلوب، فيجوز حينئذ أن نقعد عن الطلب، والدفاع عن الحق، ونحو ذلك بأن الذي سيقع منه مقضي مكتوب، فسعي الإنسان لا دخل له في التحصيل، وهذا هو الجبر بشحمه ولحمه؟

والجواب: إن كل ما في الكون من حوادث يستند في وجوده لجملة من الأسباب ينتفي بانتفاء واحد منها، ومن جملتها إرادة الإنسان واختياره، غير أنه كما لا يجوز له إخراج إرادته واختياره من زمرة العلل، وإبطال حكمه في التأثير، كذلك لا يجوز له أن يحكم بكون اختياره سبباً وحيداً، وعلة تامة إليه تستند الحوادث، من غير أن يشاركه شيء آخر من أجزاء العالم والعلل الموجودة فيه التي في رأسها الإرادة الإلهية فإن ذلك يتفرع عليه كثير من الصفات المذمومة كالعجب والكبر والبخل، والفرح والأسى، والغم ونحو ذلك.

فيقول الجاهل: أنا الذي فعلت كذا وتركت كذا فيعجب بنفسه أو يستكبر على غيره أو يبخل بماله - وهو جاهل بأن بقية الأسباب الخارجة عن إرادته واختياره، وهي ألوف وألوف لو لم يمهد له الأمر لم يسد اختياره شيئاً، ولا أغنى عن شيء - ويقول الجاهل: لو أني فعلت كذا لما تضررت بكذا، أو لما فات عني كذا، وهو جاهل بأن هذا الفوت أو الضرر يستند عدمه - أعني الربح أو العافية، أو الحياة - إلى ألوف وألوف من العلل يكفي في انعدامها - أعني في تحقق الفوات أو الضرر - انعدام واحد منها، وإن كان اختياره موجوداً.

---

(١) سورة الحديد: ٢٢-٢٣.

فالقرآن لا يمنع من الاختيار ونسبة الأفعال إلى البشر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١)، فنسب فعل الفاحشة إليهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢)، وقال: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾(٣).

فأصل نسبة الفعل إلى فاعله مما لا ينكره القرآن الكريم وإنما ينكر دعوى الاستقلال في الفعل والاستغناء عن مشيته وإذنه تعالى، فتراه يسند الحوادث إلى القضاء كي لا يفرح الإنسان بما وجده جهلاً، ولا يحزن بما فقده جهلاً كما في قوله تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(٤)، فإنه يدعو إلى الجود بإسناد المال إلى إيتاء الله تعالى، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٥)، فإنه يندب إلى الإنفاق بالاستناد إلى أنه من رزق الله تعالى.

والنمرقة الوسطى التي يتضح فيها معنى (الأمر بين الأمرين) هي أن كل سبب من الأسباب الكونية ليس سبباً من تلقاء نفسه و باقتضاء من ذاته بل بإقداره تعالى على الفعل و التأثير و عدم إرادته خلافه، و إن شئت فقل: بتسهيله تعالى له سبيل الوصول إليه، و إن شئت فقل بإذنه تعالى فالإذن هو الإقدار و رفع المانع وقد تكاثرت الآيات الدالة على أن كل عمل من كل عامل موقوف على إذنه تعالى قال

---

(١) سورة الأعراف: ٢٨.
(٢) سورة يونس: ٤١.
(٣) سورة الشورى: ١٥.
(٤) سورة النور: ٣٣.
(٥) سورة البقرة: ٣.

تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾(١)، و قال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾(٢)، وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾(٣)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾(٤)، و قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾(٥) وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾(٦)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين ﷺ بقوله: «أنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك من دونه شيئاً، ولا نملك إلا ما ملكنا، مما هو أملك به منا»(٧).

وبذلك أخبر أمير المؤمنين عليه السلام حين سأله عباية بن ربعي الأسدي عن الاستطاعة؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: تملكها من دون الله أو مع الله؟ فسكت عباية، فقال له: قل يا عباية! قال: وما أقول؟ قال: إن قلت تملكها مع الله قتلتك، وإن قلت تملكها من دون الله قتلتك، قال: وما أقول يا أمير المؤمنين؟ قال: تقول تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن ملكها كان ذلك من عطائه، وإن سلبكها كان ذلك من بلائه، وهو المالك لما ملكك، والمالك لما عليه أقدرك، أما سمعت

(١) سورة الحشر: ٥.

(٢) سورة التغابن: ١١.

(٣) سورة الأعراف: ٥٨.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٥.

(٥) سورة يونس: ١٠٠.

(٦) سورة النساء: ٦٤.

(٧) نهج البلاغة: ص٣٦٣، من كلام له عليه السلام في تفسير الاستطاعة، وكون العباد مختارين في أعمالهم الإرادية.

الناس يسألون الحول والقوة حيث يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله؟....إلى آخر كلامه عليه السلام[١].

إذا اتضح ما تقدم نقول: إن الآية الكريمة ليست في صدد نفي اختيار الإنسان، إنّما أرادت أن تبين أنه غير كاف في التأثير ما لم يشفع بالإذن الإلهي.

فعلى الإنسان العارف بمقام ربه المسلم له ألا يرى نفسه سبباً مستقلاً لفعله مستغنياً فيه عن غيره بل مالكاً له بتمليك الله قادراً عليه بإقداره وأن القوة لله جميعاً وإذا عزم على فعل أن يعزم متوكلاً على الله قال تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلِينَ**﴾[٢]، وإذا وعد بشيء أو أخبر عما سيفعله أن يقيده بإذن الله أو بعدم مشيته خلافه.

من هنا أمر القرآن الكريم الإنسان أن لا يتكل على إرادته واختياره وإنما يوقفه على مشيئة الله قال تعالى: ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾[٣].

---

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: العلامة المجلسي الجزء: ٢ صفحة: ٢١١.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سورة الكهف: ٢٣-٢٤.

إشكال:

قد يقول قائل: إن في الدعوة إلى الصبر على البلايا والمصائب قبول للظلم والطغيان وإذلال للمسلم، وكل ذلك مخالف للدين؟

والجواب: أن المصائب التي ندب الشرع إلى الصبر عليها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالذب والامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت ومرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها، وأما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار لا يجوز الصبر عليها ولا يأذن المكلف في تحملها ويجب عليه أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض والنفوس.

حديث فليعد للفقر جلباباً

وفي سياق ما تقدم نفقه ما روي عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: من أحبنا أهل البيت فليعد للفقر جلباباً أو تجفافاً[١].

والجلباب هو الملحفة، قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ**﴾[٢]، يغطين وجوههن وأبدانهن بملاحفهن إذا برزن لحاجة[٣].

والتجفاف: شيء من سلاح يترك على الفرس يقيه الأذى، وقد يلبسه الإنسان أيضاً. كذا في نهاية ابن الأثير[٤].

وفي القاموس التجفاف بالكسر آلة للحرب يلبسه الفرس والإنسان ليقيه من الحرب[٥].

ومعنى الحديث: من أحبنا فليستر فقره، أو فليدفعه عن نفسه بسلاح كالتجارة ونحوها فهو حث وترغيب على فعل أحد الأمرين.

وعليه فمعنى الحديث دائر بين المعنيين المذكورين بناء على الخلاف في المتن، فقوله: «فليعد للفقر جلباباً» إشارة إلى الحث على ستره؛ لأن الجلباب آلة للستر.

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨٨، رقم الحديث: ١١٢، بحار الأنوار: ج٢٧ص١٤٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ج٢ ص٢٨٠.

(٤) نهاية ابن الأثير: ج١ ص٢٧٩.

(٥) القاموس المحيط ج٣ ص١٢٤.

وقوله: «فليعد تجفافاً له» إشارة إلى الحث على ما به يدفع الفقر وأذاه عن نفسه من تجارة أو زراعة أو صناعة أو كتابة ونحوها؛ لأن التجفاف آلة لدفع الأذى في الحرب.

فعلى الأول شبّه الفقر في وجوب ستره وشناعة إظهاره؛ لأنه ذل وهوان واستسلاب للعزة ومذهبة للحياء، بامرأة ذات عورة شنيع إظهارها وواجب سترها بالجلباب.

أي: فليعد ساتراً ستيراً على وجه لا يظهر منه شيء، وفيه من المبالغة والحث على ستر الفقر وكتمانه ما لا يخفى، وذلك بأن يكتمه على نفسه ويعدّها لتحمّله، فكأنه بذلك أعد له جلباباً وستره فيه.

والغرض المسوق له الكلام هو الحث على ستره وكتمانه وعدم إظهاره، لئلا يشمت به الأعداء، ويقولوا إن محبي أهل البيت عليهم السلام فقراء أذلاء لا مال لهم، ولذلك كان أصحاب الصفة يتعففون ويكتمون فقرهم على وجه يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من التعفف.

وورد في الخبر عن سيدنا الصادق عليه السلام: «شيعتنا من لا يسأل الناس ولو مات جوعاً»(١).

ويشهد لصحة ما قلناه ما في الكافي: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا علي إن الله جعل الفقر أمانة عند خلقه، فمن ستره أعطاه الله مثل أجر الصائم القائم»(٢).

---

(١) عدة الداعي ص٩٩.

(٢) أصول الكافي ج٢ ص٢٦٠ الحديث ٣.

وفيه رواية أخرى: «يا علي الحاجة أمانة الله عند خلقه، فمن كتمها أعطاه الله ثواب من صلى»(١).

فكتمانه فقره وحاجته على نفسه جلبابه؛ لاشتراكهما في الساترية.

وعلى الثاني شبه الفقر بالعدو، والخصم المحارب، ثم أمر بإعداد تجفاف له أي سلاح ليقيه أذاه، وهم قد يشبهون الفقر بالخصم والجائر.

كما في حكاية أعرابي دخل على أمير المؤمنين عليه السلام: «جئتك لتنصفني عن جائر لا يرحم صغيراً لصغره ولا كبيراً لكبره، فقال عليه السلام: وما ذاك؟ قال: الفقر يا أمير المؤمنين، فأمر الخازن بعشرة آلاف درهم فأعطاه، وقال: يا أخا العرب فبالله ورسوله عليك كلّما أتاك خصمك متعرضاً، فارجع إليّ متعوذاً»(٢).

وإنما أمره بأعداد ما يقيه أذاه لطفاً به وحفظاً له عن شماتة أعدائه وأرباب دولة الباطل، ولئلا يهينوه لفقره وفاقته، فأمره بإعداد ما فيه عزّه وإكرامه، ولأن من الفقر ما هو سواد الوجه في الدارين.

وهذا تأويل قول النبي صلى الله عليه وآله: كاد الفقر أن يكون كفراً (٣). ولذلك ورد في بعض الروايات استعاذتهم من الفقر.

وبالجملة إعداد ما به يدفع الفقر الذي لا يكون معه صبر ولا ورع يحجزه عمّا لا يليق بأهل الدين والمروءة واجب «غنىً يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الأثم» كذا في التهذيب عن الصادق عليه السلام(١).

---

(١) أصول الكافي ج٢ ص٢٦١ حديث ٨.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة: ج٧ ص١٧٦.

(٣) أصول الكافي ج٢ ص٣٠٧.

ولهذا قسموا الاكتساب إلى الأقسام الخمسة منها: ما هو واجب.

وإنما شبه التجارة ونحوها بالتجفاف؛ لأنها تقيه أذى الفقر ويدفعه عنه، كما إن التجفاف يقيه أذى الحرب ويدفعه، فهما متشابهان في دفع الأذى ووقايته.

وبالجملة أن المفهوم منه إنه عليه السلام جعل المحبة مقتضية لإعداد جلباب أو تجفاف للفقر، ولم يجعلها أي محبتهم مقتضية للفقر نفسه.

فهذا حث منه لمن أحبهم على ستر فقره أو دفعه.

وملخص الكلام في هذا المقام: أن محبتهم تقتضي ستر الفقر، أو دفعه، لأنهم كانوا يسترون فقرهم ويدفعونه، فعلى محبيهم إن كانوا صادقين في محبتهم أن يستروه أو يدفعوه تشبهاً بهم.

وأما إنهم كانوا يسترونه، فمع وضوحه تدل عليه صحيحة أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إن أناساً بالمدينة قالوا: ليس للحسن مال، قال: فبعث الحسن عليه السلام إلى رجل بالمدينة، فاستقرض منه ألف درهم، فأرسل بها إلى المصدق، وقال: هذه صدقة مالنا، فقالوا ما بعث الحسن عليه السلام بهذه من تلقاء نفسه إلاّ وله مال»[٢].

وفي رواية عبد الأعلى مولى آل سام: قال: «إن علي بن الحسين عليه السلام اشتدت حاله حتى تحدث بذلك أهل المدينة، فبلغه ذلك، فتعيّن ألف درهم، وبعث بها إلى صاحب المدينة، وقال: هذه صدقة مالي»[٣].

---

(١) تهذيب الأحكام ج٦ ص٣٢٨ حديث ٢٥.

(٢) بحار الأنوار ج٤٣، ص٣٥١، حديث ٢٦.

(٣) فروع الكافي ج٦ ص٤٤٠.

فهذا ونحوه جلباب للفقر يستره عن أعين الناس، وليس المراد مجرد الصبر على الفقر، فكم من فقير يصبر ولا يستر، بل يظهر من حاله ﷺ أنه كان فقيراً، ومع صبره ﷺ ظهر فقره حتى تحدث أهل المدينة بذلك، إلى أنّ بعث بألف درهم فحينئذ ستره.

وأمّا إنهم كانوا يدفعونه بتحصيل أسباب الرزق، فمع وضوحه أيضاً يدل عليه صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال محمد بن المنكدر: كان يقول: ماكنت أرى علي بن الحسين عليه السلام يدع خَلَفاً أفضل من علي بن الحسين عليه السلام حتى رأيت ابنه محمد بن علي عليه السلام، فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟

قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فليقني أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام، وكان رجلاً بادناً ثقيلاً، وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي: شيخ من أشياخ قريش في مثل هذه الساعة على مثل هذه الحال في طلب الدنيا، أما أني لأعظنّه.

فدنوت منه، فسلّمت عليه، فردّ عليّ بنهرٍ وهو ينصاب عرقاً، فقلت أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في مثل هذه الساعة على مثل هذه الحال في طلب الدنيا، أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال، ما كنت تصنع؟

فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا على طاعة من طاعات الله عز وجل، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف أن لو جاءني

الموت وأنا على معصية من معاصي الله عز وجل، فقلت صدقت يرحمك الله، أردتُ وعظك فوعظتني(١).

وفي رواية عبد الأعلى مولى آل سام، قال: استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر، فقلت جعلت فداك حالك عند الله عز وجل وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني به عن مثلك(٢).

من هنا يتضح بُعد ما ذهب إليه أبن الأثير بتفسيره للحديث حيث قال: وفي حديث علي عليه السلام «من أحبنا أهل البيت فليعد للفقر جلباباً» أي: ليزهد في الدنيا، وليصبر على الفقر والقلة.

ثم قال: وقيل إنّما كنى بالجلباب عن اشتماله بالفقر، أي: فليلبس إزار الفقر ويكون منه على حاله تعمه وتشمله؛ لأن الغنى من أحوال أهل الدنيا، ولا يتهيّأ الجمع بين حب الدنيا وحبّ أهل البيت(٣).

فأنه يرد عليه أن الغنى ليس من خصائص أهل الدنيا، لأن بعض الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وخاصة أصحابهم وحواريهم كانوا أغنياء، وإن كانوا من الزاهدين في الدنيا؛ إذ الزهد ليس فقد الدنيا، بل عدم تعلق القلب بها، بحيث لا يفرح بحصولها، ولا يحزن بفواتها.

---

(١) فروع الكافي ج٥ ص ٧٣ حديث ١ .

(٢) فروع الكافي ج٥ ص٧٤ حديث ٣.

(٣) نهاية ابن الأثير: ج١ ص٢٨٣.

قال سيد العابدين عليه السلام: ألا وإنّ الزهد في آية من كتاب الله: **﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**[1].

ولا يمتنع اجتماع حب أهل البيت عليهم السلام والغنى، كيف؟ وأكثر أعاظم أصحابهم وأحبابهم، كزرارة وابن أبي عمير وعلي بن يقطين وغيرهم، كانوا أغنياء أرباب أموال كثيرة.

نقل الشيخ البهائي عن الدروس أنه قد أحصى في عام واحد خمسمائة وخمسون ملبياً عن علي بن يقطين، أقلهم بسبعمائة دينار، وأكثرهم بعشرة آلاف[2].

ثم قال: هذا يصير مبلغاً لا تفيء به خزانة كثير من ملوك زماننا.

قال: وإذا كان يصرف في الحج المستحب هذا القدر، فما ظنك في جميع خروجه في كل السنة من التصدقات المستحبة والواجبة من الخمس والزكاة والأنعامات، وغير ذلك من الإخراجات.

قال: وأعجب من ان يكون هذا كله من الحلال، فإن الرجل الثقة لا يقرب الحرام.

وعن أبي عبد الله الشاذاني، أنه قال: سمعت الفضل بن شاذان، يقول: أخذ يوماً شيخي بيدي وذهب بي إلى ابن أبي عمير، فصعدنا إليه في غرفة وحوله مشايخ يعظّمونه ويبجّلونه، فقلت لأبي من هذا؟ فقال: هذا ابن أبي عمير، فقلت الرجل الصالح العابد؟ قال: نعم.

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٥٩، وأصول الكافي: ج٢ ص٣١٩.

(٢) الدروس الشرعية: ج١ ص٣١٩.

وسمعته يقول: ضرب ابن أبي عمير مائة خشبة وعشرين خشبة في أيام هارون، وتولّى ضربه السندي بن شاهك على التشيع وحبس، فأدى مائة وأحداً وعشرين ألفاً حتى خلي عنه، فقلت: وكان متمولاً؟ قال: نعم، كان ربّ خمسمائة ألف درهم (١).

ثم كيف يحثّ علي من أحبهم على لبس إزار الفقر، وهو وأولاده الكرام كانوا يتأبون عن ذلك، ويحثون أحبائهم وأولياءهم على نزعه، حيث قالوا: لا خير فيمن لا يحب جمع المال يكف به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه(٢).

وقد قال سيدنا الصادق عليه السلام لمولى له، عبد الله: احفظ عزّك، قال: وما عزّي جعلت فداك؟ غدوك إلى سوقك، وإكرامك نفسك. وقال لآخر مولى له: ما لي أراك تركت غدوك إلى عزك؟ قال: جنازة أردت أن أحضرها، قال: لا تدع الرواح إلى عزّك. كذا في صحيحة علي بن عقبة(٣).

والأخبار في حثهم أحبابهم وأصحابهم على التجارة وطلب الغنى ونهيهم عن تركها، أكثر من أن تحصى، وهم إذا لم يرضوا لأنفسهم أن ينسب إليهم الفقر والقلة حتى استقرضوا ودفعوا به الهوان والذل عنهم فكيف يرضون ذلك لأتباعهم، ويحثونهم على التقلل المانع من أكثر الطاعات والعبادات، كالحج والزكوات وصلة الأرحام ونحوها، على لبس إزار الفقر المورث للذلة والإهانة، وهم قد نهوهم عنه كما سبق.

---

(١) اختيار معرفة الرجال: ج٢ ص٨٥٥-٨٥٦.

(٢) فروع الكافي: ج٥ ص٧٢ حديث ٥. يعني من حلال.

(٣) تهذيب الأحكام: ج٧ ص٤. وسائل الشيعة: ج١٧، ص١٣.

وفي الكافي: في موثقة أبي بصير، قال: بلغ أمير المؤمنين عليه السلام أن طلحة والزبير يقولان: ليس لعلي عليه السلام مال، فشق ذلك عليه، فأمر وكلائه أن يجمعوا غلّته، حتى إذا حال الحول أتوه وقد جمعوا من غلته، مائة ألف درهم، فنشرت بين يديه، قال: فأرسل إلى طلحة والزبير، فأتياه فقال لهما: هذا المال والله ليس لأحد فيه شيء، وكان عندهما مصدقاً، قال فخرجا من عنده وهما يقولان: إن له لمال. كذا في الكافي[1].

ومثله رواية عبد الأعلى مولى آل سام، قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الناس يرون أن لك مالاً كثيراً، فقال: ما يسوئني ذلك، إن أمير المؤمنين عليه السلام....الحديث[2].

قال بعض المحققين من أصحابنا: إن ترك الدنيا بالكلية ليس هو مطلب الشارع من الزهد فيه والتخلي عنها؛ لأنه يراعي نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح، ليتم بقاء النوع الإنساني وترك الدنيا وإهمالها بالكلية يهدم ذلك النظام وينافيه[3].

بل الذي يأمر به هو القصد في الدنيا، واستعمال متاعها وفق القوانين التي جاءت بها الرسل، والوقوف عند الحدود المضروبة في الشرائع دون تعديها.

وبما قررناه ظهر أن وجه الحديث خلاف ما قاله أبن الأثير، بل الوجه فيه ما أسلفناه.

---

(١) فروع الكافي: ج٦ ص٤٤٠.

(٢) مكارم الأخلاق، للطبرسي: ص٩٩.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن ميثم البحراني: ج٤ ص١٩.

وبالجملة إن أراد هذا القائل إن هذا الكلام منه عليه السلام حثٌّ لمن أحبهم على لبس إزار الفقر والفاقة، وترك أسباب الغنى والثروة وما يوجبها بالكلية، فيردّه ما سبق وما ورد من استعاذتهم منه.

فهذا سيد العابدين وزين الساجدين يقول في دعائه: ولا أفتقرنّ ومن عندك وسعي[١].

وفي موضع آخر منه: وصن وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار[٢].

فكيف يحثّون أحباءهم وأولياءهم بلبس إزار الافتقار والإقتار؟ وهم يتأبّون عنه، ويلتمسون الله في صيانة ماء وجههم باليسار، وعدم ابتذال جاههم بالإقتار.

نعم لو كان المراد بالفقر هو الفقر إلى الله دون غيره وطلب الحاجة منه لا من غيره، وإليه يشير قول النبي صلى الله عليه وآله: الفقر فخري[٣].

وقول سيد العابدين عليه السلام: «تمدحت بالغنا عن خلقك، أنت أهل الغنا عنهم، ونسبتهم إلى الفقر وهم أهل الفقر إليك فمن حاول سد خلتك من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بك، فقد طلب حاجته في مظانها، وأتى طلبته من وجهها، ومنتوجه بحاجته إلى أحد من خلقك، أو جعل سبب نجحها دونك، فقد تعرض للحرمان، واستحق من عندك فوت الإحسان»[٤].

---

(١) الصحيفة الكاملة السجادية: ص٩٨، الدعاء ٢٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٢، ٣٠، ٣٢، ٤٩، ٥٥.

(٤) الصحيفة السجادية الكاملة: ص٦٨ الدعاء ١٣.

لكان له وجه وكان مفاد الكلام: من أحبنا فليلبس إزار الفقر إلى الله دون غيره، ويكون منه على حالة يعمّه ويشمله، لأن الفقر إلى غيره كفر، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: الفقر سواد الوجه في الدارين[1].

وإن أراد أن محبتهم تورث الفقر وتوجبه، فهو خلاف الواقع، كما أشار إليه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب غريب الحديث، حيث قال: فقد تأول بعض الناس هذا الخبر على أنه أراد بالفقر في الدنيا، وليس ذلك كذلك، لأنا نرى في يحبهم مثل ما نرى في سائر الناس من الغنى والفقر ولا تمييز بينهما[2].

(١) عوالي الآلي: ج١ ص٤٠.

(٢) غريب الحديث للهروي: ج٢ ص١٤٦.

خاتمة

خير ما نختم به هذه المسألة مثالان ذكرهما القرآن الكريم لنبيين كريمين، هما: سليمان وأيّوب عليهما السلام؛ يمثل الأول خير حجة على الموقف المطلوب تجاه الابتلاء بالخير.

ويمثّل الثاني الموقف المطلوب تجاه الابتلاء بالشر، والغرض من ذكر قصصهما إعطاء درس لأصحاب العقول والفكر على طول التاريخ لأخذ العبر، كي لا يفقدوا صبرهم وتحمّلهم عند تعرّضهم للمشاكل والحوادث الصعبة، وأن لا ييأسوا من رحمة الله، بل يزيدوا من أملهم وتعلّقهم به.

وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾(١)

فهذا سليمان عليه السلام قد أوتي من عظيم الملك ونافذ الأمر وعجيب القدرة أن أمر بإحضار عرش ملكة سبإ من سبإ إلى فلسطين فأحضر في أقل من طرفة عين، فلم

---

(١) سورة ص: ٣٤-٤٤.

يأخذه كبر النفس وخيلاؤها، ولم ينس ربه ولم يمكث دون أن أثنى على ربه في ملئه بأحسن الثناء.

فسليمان عليه السلام كان يرى جميع النعم التي يتمتع بها من نعم الله عليه، وليس من عند نفسه، وكان يدعو ربّه خاضعاً فيقول: ﴿**وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ (١).

فصار مصداقاً حقيقيّاً لقوله تعالى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (٢).

بينما نجد في الطرف الآخر أناس جحدوا ما أنعم الله عليهم، وأدعوا الاستقلال والاستغناء عن ربهم، كما في قصة نمرود مع إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ (٣).

وقد قال ذلك إذ أحضر رجلين من السجن فأمر بقتل أحدهما وإطلاق الآخر.

ولنقس ذلك أيضاً على فرعون مصر إذ قال كما حكاه الله: ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ**﴾ (٤)، يباهي بملك مصر وأنهاره و مقدار من الذهب كان

---

(١) سورة النمل: ١٩.

(٢) سورة سبأ: ١٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٤) سورة الزخرف: ٥٣.

يملكه هو و ملؤه، حتى قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(١)، و هو الذي كانت تستذله آيات موسى يوماً بعد يوم من طوفان وجراد و قمل وضفادع و غير ذلك.

نعم إن عبدة الدنيا وطُلاّبها المغرورين حين ينالون «القوّة» والاقتدار ينسون كل شيء إلاّ أنفسهم. وكل ما يقع في أيديهم يحسبونه من عند أنفسهم لا من غيرهم، كما كان قارون يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾(٢)، في حين أن عباد الله وخاصّته كلما نالوا شيئاً قالوا: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾(٣).

الطريف أن سليمان عليه السلام لم يقل هذا الكلام عندما شاهد عرش ملكة سبأ عنده فحسب، بل أضاف قائلاً: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

يوسف عليه السلام حين جلس على سرير الحكم في مصر وعاد إليه والداه وإخوته بعد فراق طويل قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٤).

أجل.. هذا هو معيار معرفة الموحدين المخلصين من عبدة الدنيا المغرورين، وهذه سيرة الرجال العظماء في قبال غيرهم من الأنانيين!

وعليه فلا يكفي كتابة قوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ على أبواب القصور من دون أن يعتقد الإنسان بذلك، أو يكون أدنى أثر من هذه العبارة في عمله، فالمهم هو أن يكشف عمله أن كل ذلك من فضل الله، وأن يشكره عليه، لا شكراً باللسان فحسب، بل شكراً مقروناً بالعمل وفي جميع وجوده.

---

(١) سورة النازعات: ٢٤.

(٢) سورة القصص: ٧٨.

(٣) سورة النمل: ٤٠.

(٤) سورة يوسف: ١٠١.

وأمّا أيوب عليه السلام فهو حقاً حجة في تحمله للبلاء وقسوة الحياة حتى أضحت قصته العظيمة السامية مضرباً للمثل منذ القدم، فقد كان صبره وتحمّله عجيبين، خاصّةً أمام الحوادث المرّة.

فأيّوب عليه السلام ـ كسائر الأنبياء عليهم السلام ـ يُظهر أقصى حالات الأدب والخضوع أمام الله عند الدعاء لرفع هذه المشاكل المضنية المجهدة، ولا يعبّر بتعبير تُشمّ منه رائحة الشكوى، بل يقول فقط: إنّي ابتليت بهذه المصائب وأنت أرحم الراحمين، فهو حتّى لا يقول: حلّ مشكلتي، لأنّه يعلم أنّه جليل عظيم، وهو يعرف حقّ العظمة.

وهذا ما حكاه القرآن عنه: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[1].

وفي حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ رجلاً سأله عن بليّة أيّوب لأي علّة كانت؟ فأجابه بما ملخّصه؛ إنّ هذا الابتلاء لم يكن لكفران نعمة، بل على العكس من ذلك، فإنّه كان لشكر نعمة حسده عليها إبليس، فقال لربّه: يا ربّ إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلاّ بما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدّى إليك شكرك، فسلّطني على دنياه حتّى يتبيّن الأمر، فسلّطه الله عليه ليكون هذا الحادث سنداً لكلّ سالكي طريق الحقّ.

فانحدر إبليس وأهلك أموال أيّوب وأولاده الواحد تلو الآخر، ولكن لم تزد هذه الحوادث أيّوب إلاّ ثباتاً على الإيمان وخضوعاً لقضاء الله وقدره.

فسأل الشيطان الله سبحانه أن يسلطه على زرعه وغنمه فسلطه، فأحرق كلّ زرعه، وأهلك كلّ غنمه، فلم يزدد أيّوب إلاّ حمداً وشكراً.

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٣.

وأخيراً طلب الشيطان من الله أن يسلطه على بدن أيّوب ليكون سبب مرضه، وهكذا كان بحيث لم يكن قادراً على الحركة من شدّة المرض والجراحات، لكن من دون أن يترك أدنى خلل في عقله وإدراكه.

والخلاصة، فقد كانت النعم تسلب من أيّوب الواحدة تلو الأخرى، ولكن شكره كان يزداد في موازاتها، حتّى جاء جمع من الرهبان لرؤيته وعيادته، فقالوا: قل لنا أي ذنب عظيم قد اقترفت حتّى ابتليت بمثل هذا الابتلاء؟! وهنا بدأت شماتة هذا وذاك -وكان هذا الأمر أشد ابتلاءاته عليه السلام كما صرح هو عليه السلام في حديث آخر، فقال مجيباً: وعزّة ربّي إنّي ما أكلت لقمة من طعام إلاّ ومعي يتيم أو مسكين يأكل على مائدتي، وما عرض لي أمران كلاهما فيه طاعة لله إلاّ أخذت بأشدّهما عليّ.

عند ذاك كان أيّوب قد اجتاز جميع الامتحانات صابراً شاكراً متجمّلاً: وهو يناجي ربّه بلسان مهذّب ودعا أن يكشف عنه ضرّه بتعبير صادق ليس فيه أدنى شكوى ـ وهو ما ذكرته الآية المتقدّمة: **﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**، وفي هذه الأثناء فتحت أبواب الرحمة الإلهيّة، ورفع البلاء بسرعة، وانهمرت عليه النعم الإلهيّة أكثر من ذي قبل [1].

أجل.. إنّ رجال الحقّ لا تتغيّر أفكارهم وأعمالهم بتغيّر النعم، فهم يتوجّهون إلى الله في حريتهم وسجنهم وسلامتهم ومرضهم وقوّتهم وضعفهم، وبكلمة واحدة في كلّ الأحوال، ولا تغيّرهم حوادث الحياة، فإنّ أرواحهم كالمحيط العظيم لا يؤثّر في هدوئه تلاطم الرياح العاتية.

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٤٠. وما نقلناه هو ملخص ومعنى الحديث دون نصه.

كما أنّهم لا ييأسون لهول الحوادث المرّة وكثرتها، بل يواجهونها ويصمدون لها حتّى تفتح أبواب الرحمة الإلهيّة، لعلمهم أنّ الحوادث والظروف الصعبة امتحانات إلهيّة يُعدّها الله لخاصّة عباده ليكونوا أكثر مراناً ومراساً..

وفي الختام نقول: عندما تشتدّ أمواج الحوادث والبلاء على الإنسان وتحيط به من كلّ جانب، عليه ألا ييأس ويفقد الأمل، وإنّما عليه أن يدرك أنّها بداية تفتح أبواب الرحمة الإلهية عليه، كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «عند تناهي الشدّة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء» [1].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [2].

---

(١) نهج البلاغة، قصار الكلمات، الكلمة ٣٥١.

(٢) الشرح: ٥-٦.

المسألة الخامسة
انقسام البلاء إلى عام وخاص

ينقسم البلاء إلى بلاء خاص يصيب الفرد من الناس، وإلى بلاء عام يشمل المجتمع برمته، وقد أشار الى الثاني قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

وقد تقدّمت الأدلّة في الفصل الثاني أنّ بلاء الحوادث الكونية نتيجة لمعصية العباد وطاعتهم؛ فاذا وافقت الأعمال أمر تعالى ونهيه، وجرت سيرتها في طاعة الله سبحانه استتبع ذلك نزول الخيرات، وانفتاح أبواب البركات، وهذا ما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢).

وأما إذا انحرفوا عن صراط العبودية، وتمادوا في الغي والضلالة والدونية، أوجب ذلك ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الأمم بانتشار الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله، وكذا ظهور المصائب والحوادث الكونية المبيدة والتي تكون خارج إرادة واختيار الانسان، كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك، وقد عد الله سبحانه سيل العرم وطوفان نوح وصاعقة ثمود وصرصر عاد من هذا القبيل.

فإذن انغمار الأمة في المعاصي والسيئات سبب لجملة من الابتلاءات العامة، قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ

---

(١) سورة الروم: ٤١.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦.

كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمْ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللهُ مِنْ وَاقٍ﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣]، هذا كلّه في الأمة الطالحة، والأمة الصالحة على خلاف ذلك.

إشكال: الحوادث الكونيّة الطبيعيّة

فإن قيل: أن كلامكم السابق يصح في المصائب والابتلاءات الراجعة إلى الإنسان وأعماله كالحروب وانتشار الظلم وارتفاع الأمن، أما الحوادث العامة والخاصة كالسيول والزلازل والأمراض المسرية، فلها أسبابها الطبيعية المطردة فإذا تحققت تحقّقت هذه الظواهر سواء صلحت النفوس أو طلحت، وعليه فلا محل للتعليل بالأعمال الحسنة والسيئة بل هو فرضية دينية، وتقدير لا يطابق الواقع.

والجواب: إننا لا نريد بقولنا السابق إبطال الأسباب الطبيعية لهذه الظواهر الكونية، بل غاية ما في الأمر أن لكل معلول ومنها هذه الظواهر أسباباً طبيعية مادية وأخرى غيبية ملكوتية، وهذه الأسباب الغيبية أشد تأثيراً من الأولى، فليس مرادنا إبطال نظام السببية، بل إثبات علة في طول علة، وعامل معنوي فوق العوامل

---

(١) سورة غافر: ٢١.

(٢) سورة الإسراء: ١٦.

(٣) سورة المؤمنون: ٤٤.

المادية، وإسناد التأثير إلى كلتا العلتين لكن بالترتيب: أولاً وثانياً، نظير الكتابة المنسوبة إلى الإنسان وإلى يده.

فقد بينا في أكثر من مناسبة أنّ القرآن الكريم يصادق قانون العلية والسببية، فما لم تكتمل أجزاء العلة التامة لا يوجد المعلول، وليست تقتصر الأسباب على الأسباب المادية الطبيعية، بل لابد من اقترانها بأسباب غيبية راجعة إليه تعالى، وقد تقدم قوله عز من قائل: **﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾**[(١)]، و قال: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾**[(٢)]، وقال: **﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾**[(٣)]، و قال: **﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾**[(٤)]، فما من موجود يوجد أو يعدم إلاّ من بعد أذنه الذي هو عبارة أخرى عن الأسباب الغيبية، فإذن هناك أسباب مادية لهذه الحوادث الكونية؛ كالزلازل والسيول ونحوها من الكوارث، وهي ما أشار إليها الإشكال، وهناك أسباب غيبية هي ما تكلم عنها القرآن وأهله.

---

(١) سورة الحشر: ٥.

(٢) سورة التغابن: ١١.

(٣) سورة الأعراف: ٥٨.

(٤) سورة آل عمران: ١٤٥.

وجه المصلحة في هذه المصائب العامة؟!

قد تقدم في معرض كلامنا حول أسباب المصائب أن من ورائها وجوه حسنة ومصالح ذكرناها تفصيلاً، وأيدنا ذلك بقوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**﴾[1]، وبما إن هذه الكوارث العامة مخلوقة له تعالى: ﴿**قُلْ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[2]، فلابد أن تكون حسنة، ومن وراءها غاية صالحة وفائدة ترجع إلى الإنسان لاستغنائه تعالى عن خلقه ﴿**وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ**﴾[3]، فما هي هذه المصلحة والفائدة؟!

والجواب: تقدم ايضاً انه تعالى لم يخلق هذا العالم عبثاً بلا غاية وهدف،﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**﴾[4]، وغايته أوضحها القرآن بقوله: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾[5]، وكما في الإنسان إذا صنع شيئاً لغاية ما وعرض ما يمنع وصول هذا الشيء لغايته فإنه يرفع هذا المانع ويزيل هذا العائق، كذلك الله تبارك وتعالى يسوق الإنسان إلى سعادته الوجودية وكماله الذي خلق من أجله وهو الرجوع إليه، فإذا عرض لهذا السير عائق مانع يوجب توقفه، قوبل ذلك بما يدفع العائق المذكور أو يهلك الجزء الفاسد.

فالمصلحة إذن من وراء هذه الابتلاءات العامة هو إزالة الأقوام التي تمنع وصول نوع الأنسان إلى سعادته وكماله الذي خُلق من اجله.

---

(١) سورة السجدة: ٧.

(٢) سورة الرعد: ١٦.

(٣) سورة محمد: ٣٨.

(٤) سورة الأنبياء: ١٦.

(٥) سورة المؤمنون: ١١٥.

سنن البلاء العام

معنى السنة هو جريان افعاله تعالى على وتيرة واحدة وصونها من التخلف والاختلاف، فما قضى وحكم به يجريه على وتيرة واحدة من غير استثناء، وعلى هذا جرت سنة الأسباب، قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(٢).

من هنا أجرى الحق تبارك وتعالى سنناً في الابتلاء العام، أشار اليها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۞ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٤).

ويمكن أجمال سنن الابتلاء المذكورة في الآية الكريمة بالتالية:

---

(١) سورة الحجر: ٤٣.

(٢) سورة الفاطر: ٤٢.

(٣) سورة الأنعام: ٤٢-٤٥.

(٤) سورة الأعراف: ٩٤-٩٥.

فالسنة الأولى: أرساله تعالى أنبيائه ليمتحنوا ويختبروا أقوامهم بالبأساء والضراء حتى إذا أعرضوا عن آيات الله التي كانت تدعوهم إلى الرجوع إلى الله والتضرع والإنابة إليه، ولا ينتبهون بهاتيك المنبهات، فيأتي دور السنة الثانية.

وقد أشار تعالى لهذه السنة بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

السنة الثانية: وإذا لم ينفع ذلك بدلت هذه السنة بسنة أخرى، وهي الطبع على قلوبهم بتقسيتها وصرفها عن الحق، وتعليقها بالشهوات المادية وزينات الحياة الدنيا وزخارفها، وهذه سنة المكر.

وقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾(١).

وقوله أيضاً: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٢).

---

(١) سورة يونس: ٧٤.

(٢) سورة النساء: ١٥٥.

وقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

السنة الثالثة: وهي الاستدراج، بتبديل السيئة حسنة، والنقمة نعمة والبأساء والضراء سراء، وفي ذلك تقريبهم يوماً فيوماً وساعة فساعة إلى السنة الرابعة.

السنة الرابعة: وهي العذاب الإلهي الذي يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون به؛ لأنهم كانوا يرون أنفسهم في مهد الأمن والسلام فرحين بما عندهم من العلم، وما في اختيارهم من الوسائل الكافية على زعمهم في دفع ما يهددهم بهلاك أو يؤذنهم بالزوال.

وأشار القرآن الكريم إلى السُنتين بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

وقوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: ١٠١.

(٢) سورة الأعراف: ٩٥.

سبب نزول النعم والنقم العامة

وقد أشار الله سبحانه في خلال جملة من الآيات إلى حقيقة ناصعة هي المدار الذي يدور عليه أساس نزول النعم والنقم على العالم الإنساني من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[١].

فأشار به إلى سبب نزول النعم؛ وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢].

الذي يشير إلى سبب نزول النقم العامة.

وتوضيح ذلك: أن العالم بما فيه من الأجزاء متعلق الأبعاض مرتبط الأطراف يتصل بعضه ببعض اتصال أعضاء بدن واحد، وكما إن أجزاء البدن الواحد يتأثر بعضها ببعض من ناحية الصحة والمرض، فيختل صدور آثار بعض الأجزاء نتيجة الخلل الصادر من الجزء الآخر، ويستقيم صدور الآثار الحسنة فيما لو استقامت باقي الأجزاء؛ كذلك أجزاء هذا العالم.

فمثلاً إذا اختل بعض أجزاء السيارة بأن تعطلت بعض أجهزتها الأساسية والمهمة، فإننا نجد أن كامل محرك السيارة قد تأثر بهذا العطل واختلفت آثاره.

وهنا نقول: إن الجميع على ما يبينه القرآن الكريم سائر إلى الله سبحانه سالك نحو الغاية التي قدرت له ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[٣]، فإذا اختل أمر بعض أجزائه، وخاصة المهمة منها كالإنسان، وضعف أثره وانحرف

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة الروم: ٤١.

(٣) سورة الانشقاق: ٦.

عن مستقيم صراطه بأن أثر فساده في غيره من الموجودات، فحينئذ سينعكس ذلك عليه – أي الإنسان – في الآثار التي يرسلها ذلك الغير إليه، وهي آثار غير ملائمة لحال الإنسان – و هي المحنة و البلية – فإن استقام بنفسه أو بإعانة من غيره عاد إليه رفاه حاله السابق، ولو استمر على انحرافه واعوجاجه، وأدام فساد حاله دامت له المحنة حتى إذا طغا وتجاوز حده، انتهضت عليه سائر الأجزاء الأخرى للعالم وهاجت بقواها التي أودعها الله سبحانه فيها لحفظ وجوداتها فحطمته ودكته ومحته بغتة وهو لا يشعر.

فالأمة من الأمم إذا انحرفت عن صراط الفطرة انحرافاً يصد باقي أفراد النوع الإنساني عن الغاية التي قدرت لمسيره في الحياة كان في ذلك اختلال حال غيره مما يحيط به من الأسباب الكونية المرتبطة به، وينعكس إليه أثره السيئ الذي لا سبب له إلاّ انحرافه عن الصراط وتوجيهه آثاراً سيئة من نفسه إلى تلك الأسباب، وعند ذلك يظهر اختلالات في نظام الكون، ومحن عامة وتهجم النوائب وتتراكم المصائب والبلايا الكونية كامتناع السماء من أن تمطر، والأرض من أن تنبت، والبركات من أن تنزل، ومفاجأة السيول والطوفانات والصواعق والزلازل وخسف البقاع وغير ذلك كل ذلك آيات إلهية تنبه الإنسان وتدعو الأمة إلى الرجوع إلى ربها، والعود إلى ما تركته من صراط الفطرة المستقيم، وامتحان بالعسر بعد ما امتحنت باليسر.

وقوله تعالى السابق: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1]، خير شاهد على ذلك، فالآية تذكر أن المظالم والذنوب التي تكسبها أيدي الناس توجب فساداً في البر والبحر مما يعود

---

(١) سورة الروم: ٤١.

إلى الإنسان كوقوع الحروب وانقطاع الطرق وارتفاع الأمن وغير ذلك، أو لا يعود إليه كاختلال الأوضاع الجوية والأرضية الذي يتضرر به الإنسان في حياته ومعاشه.

وبالجملة فإن رجعت الأمة بذلك - وما أقله وأندره في الأمم - فهو، وإن استمرت على ضلالها وخبطها طبع الله على قلوبهم فاعتادوا ذلك، وأصبحوا يحسبون أن الحياة الإنسانية ليست إلاّ هذه الحياة المضطربة الشقية المقهورة للطبيعة.

فهذه حقيقة برهانية تقرر أن الإنسان كغيره من الأنواع الكونية مرتبط الوجود بسائر أجزاء الكون المحيطة به، ولأعماله في مسير حياته وسلوكه إلى منزل السعادة ارتباط بغيره فإن صلحت للكون صلحت أجزاء الكون له وفتحت له بركات السماء، وإن فسدت أفسدت الكون وقابله الكون بالفساد فإن رجع إلى الصلاح فبها، وإلاّ جرى على فساده حتى إذا تعرق فيه انتهض عليه الكون وأهلكه بهدم بنيانه وإعفاء أثره، وطهر الأرض من رجسه.

هل يمكن دفع قهر الطبيعة بالعلم؟

قد يتصور البعض إن بإمكانه التغلب على هذه البلايا والمصائب العامة بما يملكه من الأسباب، فيظن أن التقدم فيما يسميه حضارة وعلماً سيغلب به طبيعة الكون.

فإذا تقدم في العلم وتجهز بالحيل الفكرية فله أن يبارزها ويتخذ وسائل كافية في دفع قهرها وإبطال مكرها كما اتخذ اليوم وسائل تكفي لدفع القحط والجدب والوباء والطاعون وسائر الأمراض العامة السارية، وأخرى تنفي بها السيول والطوفانات والصواعق، وغير ذلك مما يأتي به طاغية الطبيعة، ويهدد النوع بالهلاك.

قتل الإنسان ما أكفره! أخذه الخيلاء فظن أنه بما يملك من العلم وباقي الأسباب قادر أن يقف بوجه سنن الكون، ويبطل عزائمها، ويقهرها على أن تطيعه في مشيته، وتنقاد لأهوائه، وهو أحد أجزائها المحكوم بحكمها.

وقد تقدم غير مرة إننا لا ننكر تأثير الأسباب الأخرى، وإن المعرفة الدينية لا تروم أن تبطل نسبة الحوادث العظام إلى أسبابها الطبيعية وتضع زمامها في يد صانعها.

فالله عز اسمه ليس سبباً في عرض الأسباب، وعلة في صف العلل المادية والقوى الفعالة في الطبيعة بل هو الذي أحاط بكل شيء، وخلق كل سبب فساقه وقاده إلى مسببه وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ولا يحيط بخلقه ومسببه غيره فله أن يتسبب إلى كل شيء بما أراده من الأسباب المجهولة عندنا الغائبة عن علومنا.

بعبارة أخرى إن هناك أسباباً غيبية ومادية أخرى غير هذه الأسباب فيسوق الكون بها، وحينئذ لا تنفعهم هذه العلوم والحيل التي تدرعوا بها فتمنعهم عن قضاءه، فيما لو استحقوا العقوبة.

وإلى ذلك يشير نحو قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾**(١)، وقوله: **﴿وَاللهُّ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**(٢)، وقوله: **﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾**(٣)، وقوله: **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهَّ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**(٤)، إلى غير ذلك من الآيات.

وكيف يسع للإنسان أن يحارب الله في ملكه، ويتخذ بفكره وسائل لإبطال حكمه وإرادته، وليس هو سبحانه في عرضها بل هو في طولها أي هو الذي خلق الإنسان وخلق منه هذه الإرادة ثم الفكر ثم الوسائل المتخذة، ووضع كلاً في موضعه، وربط بعضها ببعض من بدئها إلى ختمها حتى أنهاها إلى الغاية الأخيرة التي يريد الإنسان بجهالته أن يحارب بها ربه في قضائه وقدره، ويناقضه في حكمه، أيعجز سبحانه عن إيقاف هذا الفكر وقبضه عن غايته، أو التسبب بأسباب أخرى للوصول إلى ما يريد من عقوبات استحقها الإنسان بما كسبت يدا.

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) سورة يوسف: ٢١.

(٣) سورة الشورى: ٣١.

(٤) سورة العنكبوت: ٤١.

فهرست المحتويات

المفهوم الأوّل.. ١٥
الابتلاء.. ١٥
المفهوم الثاني ١٧
البلاء.. ١٧
البلاء مشترك لفظي....................................... ١٩
النصّ على استعمال البلاء بمعنى المحنة ٢٢
تبصرة!!.. ٢٦
اختلاف العلماء بسبب الاشتراك ٢٨
مثال لاختلاف العلماء في كون البلاء اختبار أم نعمة ٣٠
النسبة بين البلاء والابتلاء.................................... ٣١
الابتلاء: تكليف، وهو على ثلاثة أقسام........................ ٣٣
المفهوم الثالث... ٣٧
الفتنة.. ٣٧
الفتنة على عشرة معان في الاستعمال........................... ٣٩
اتحاد البلاء والفتنة خارجاً.................................... ٤٢
خلاصة الفصل الأوّل ٤٤

المبحث الأوّل.. ٤٨
أسباب البلاء ٤٨
تباين الأسباب والغايات ٥٠
الغايات على قسمين: حقيقيّة وإضافيّة. ٥٢
السبب الأوّل: الذنوب.. ٥٤
الزنا والعياذ بالله مثالاً.. ٥٦
مثال آخر: الظلم ٦٠
حديث جامع في الذنوب وآثارها التكوينيّة.. ٦١
الارتباط التكويني بين المبغوض والمصيبة ٦٤
نصوص في ذلك ٦٥
توضيح معنى: لبسه الجنّ.. ٦٨
نصّ في تأثير الشيطان التكويني ٧٠
السبب الثاني: التطهير.. ٧٢
السبب الثالث: الاختبار ٧٥
السبب الرابع: رفع الدرجات ٧٨
السبب الخامس: الغفلة والإعراض عن الله تعالى.. ٨١
إشكال وجواب.. ٨٤

المبحث الثاني.. ٨٥
الرحمة: الغاية القصوى من البلاء.............................. ٨٥
الأصل الأوّل: الرحمة والخير.................................. ٨٦
إشكال وجواب!!.. ٨٦
نصوص في أنّ البلايا والمحن خير.............................. ٨٨
الأصل الثاني: الحب... ٩٢
خلاصة الفصل... ٩٧
المسألة الأولى.. ١٠١
هل البلاء خيرٌ أم شرّ؟!...................................... ١٠١
إشكال: السيّء قبيح فكيف يكون حسناً!!.......................... ١٠٢
المسألة الثانية.. ١٠٦
البلاء والمصيبة من الله أم من العبد؟!!........................... ١٠٦
المسألة الثالثة.. ١٠٩
البلاء بالخير وبالشرّ... ١٠٩
المسألة الرابعة... ١١١
ما هو الموقف الشرعي من ذلك؟!!.............................. ١١١
معنى الشكر وحقيقته:....................................... ١١٢

معنى النعمة...١١٦
الشكر يقتضي زيادة النعمة والكفر – الجحود - يقتضي زوالها. ١١٨
الشكر يفتقر إلى شكر....................................١٢١
مراتب الشكر ١٢٣
وفي الختام...١٢٥
حقيقة الصبر: ١٢٨
لماذا أمرنا الله بالصبر؟ ١٢٩
علاقة الصبر بالعلم بالغيب...............................١٣٢
إشكال:..١٣٣
إشكال:..١٣٨
حديث فليعد للفقر جلباباً ١٣٩
خاتمة ١٥٠
المسألة الخامسة...١٥٦
انقسام البلاء إلى عام وخاص..............................١٥٦
إشكال: الحوادث الكونيّة الطبيعيّة ١٥٧
وجه المصلحة في هذه المصائب العامة؟!.....................١٥٩
سبب نزول النعم والنقم العامة ١٦٣

هل يمكن دفع قهر الطبيعة بالعلم؟................................ ١٦٦
فهرست المحتويات.. ١٦٩